

د. فؤاد زكريا





مطبوعات القاهرة



د. فؤاد زكريا

الغلاف للفنان : محمد بغـدادى

الطبعة الثانية : دار القاهرة للنشر والتوزيع

١٩٨٤

مقـــــدمة

قبل أن يظهر كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل المشهور « خريف الغضب » فى الأسواق ، نشر على هيئة سلسلة من المقالات فى صحيفة « الوطن » الكويتية · وطوال الوقت الذى كانت تنشر فيه هذه المقالات ، كانت سلسلة أخرى من الأفكار تتفاعل فى ذهنى وتتبلور يوما بعد يوم · كان كتاب هيكل ، بغير شك ، هو السبب المباشر فى اثارة هذه الأفكار ، ومع ذلك فقد كانت أصولها أبعد من ذلك وأعمق بكثير ، اذ كانت فى نهاية المطاف تأملات فى تلك الأزمة العقلية الشاملة التى شوهت تفكيرنا ، حكاما ومحكومين ، فى النصف الثانى من القرن العشرين · وحين اطلعت على ردود الفعل التى أثارها كتاب هيكل ، أو ما نشر منه ، فى الأوساط الرسمية والاعلامية والثقافية المصرية ، والطريقة التى استجاب بها الناس له ، ما بين موافق ومخالف ، ازدادت الأمور فى ذهنى وضوحا ، وتبين لى أن المناخ السائد ، الذى تولدت عنه هذه الأزمة العقلية ، يلف الجميع ، من مؤيدين ومعارضين ، مهما بدا من اختلاف ردود أفعالهم فى الظاهر·
وكانت المهمة التى أخذتها على عاتقى هى أن أحدد أبعاد هذه الأزمة ، وأثبت أن المشكلة ليست مشكلة هيكل وحده ، أو مشكلة التضاد بين هيكل وتلك القوى التى وقفت تحتج وتعترض عليه ، وانما هى أوسع من ذلك وأخطر · فقد تشوهت أشياء كثيرة فى عقولنا بفعل فترة القمع الطويلة التى لم تسمح لفكرنا بأن ينمو ويتطور بحرية ·

واذا كان هذا التشويه قد ظهر بوضـوح كامل في معركة « خريف الغضب » ، بين أنصار هيـكل وخصومه ، فان هذه المعركة لم تكن في الواقع الا مظهرا واحدا لداء أصبح متأصلا في عقولنا ، ولطريقة في التفكير فرضت نفسـها على مختلف أطراف الصراع السـياسي والاجتماعي الراهن ٠

في ضوء هذه الفكرة المحورية سجلت آرائي في هذا الموضوع في عشر مقالات كتبتها في عشرة أيام ، وان كان مضمونها حصيلة تفكير طويل ٠ وظهرت في صحيفتي « الوطن » الكويتية و « الرأى » الأردنية في وقت واحد ، ونشرت خلال شهرى يونيو ويوليو ١٩٨٣ ٠ وكانت ردود الفعل على هذه المقالات دليلا واضحا على صحة تشخيصى للأزمة التى انتابت العقل العربى نتيجة لعهود القمع الطويلة ٠

منذ اللحظة الأولى اتخذت صحيفة « الوطن » الكويتية موقفا مناوئا لى ومجاملا لصاحب « خريف الغضب » ٠ وكان جزء من هذا الموقف راجعا الى النفوذ الضخم الذى يمارسه صاحب ذلك الكتاب على قطاعات هامة من الصحافة العربية ، وجزء آخر راجعا الى احساس الكثيرين ، من المسئولين عن النشر فى تلك الصحف ، بأن الأفكار التى أحللها وأنقدها تزعزع كثيرا من المعانى والقيم الراسخة فى نفوسهم ٠ وقد ظهر ذلك بوضوح صارخ فيما بعد ، حين قامت هذه الصحيفة بحذف الجزء الأساسى من المقال التاسع ، الذى يتناول علاقة هيكل الخاصة بأمريكا ، وعنوانه : عمنا سام ٠ وكان المضحك المبكى فى عملية الحذف هذه هو أن الجزء المحذوف كان فى معظمه اقتباسا طويلا من كتاب سابق لهيـكل نفسه ، وهو اقتباس يستطيع القارىء أن يستنتج منه بسهولة أن أمريكا تتوقع من هذا الصحفى الكبير أن يلبى لها طلبات غير عادية لا هدف لها سوى تحقيق المصالح الأمريكية الخاصة ٠ ولم أكن فى هذا الجزء بالذات الا ناقلا لكلام هيـكل ذاته ، مع بعض التعليقات البسيطة ٠ ومع ذلك فان الصحيفة الناشرة كانت تخشى على هيـكل من هيـكل نفسه ، فأدى بها حرصها على ارضائه الى الامتناع عن نشر كلماته ذاتها !

على أن ردود فعل الجمهور على ما نشرت كانت تستحق التأمل • فقد وجد ما كتبته صدى طيبا لدى فئتين : فئة الشباب من جهة ، وفئة الكبار الذين كان وعيهم السياسى والاجتماعى قد بدأ يتبلور قبل ثورة ١٩٥٢ من جهة أخرى • كان الشباب متحمسين لما كتبت، اذ كانوا يرون فيه طابعا غير مألوف ، يستجيب لرغبتهم فى نقد الأوضاع الفاسدة من الجذور • وكان النقد الحاد الذى وجهته الى أسلوب التفكير السائد في عهد كامل ، يتمشى مع ما يلمسونه حولهم كل يوم من مظاهر الانهيار الناجمة عن أخطاء ذلك العهد ، ويتجاوب مع طموحهم الى تشييد بناء جديد مختلف بصورة جذرية عن الأوضاع القائمة والمتوارثة • أما الكبار فكانوا سعداء بما كتبت لأنه يمثل خروجا عن الأطر الضيقة التى ظل الفكر السياسى يدور فيها ، حتى فى كثير من أوساط المعارضة ، طوال العقود الثلاثة الأخيرة •

أما الفئة التى وقفت موقف المعارضة مما كتبت ، فكانت تنتمى الى الجيل الأوسط ، أعنى ما يطلق عليه جيل الثورة • ولست أعنى بذلك أن جميع أفراد هذه الفئة قد اتخذوا من كتابتى موقفا سلبيا ، اذ أن الكثيرين منهم أبدوا تحمسا واضحا ، ولكن ما أعنيه هو أن الجزء الأكبر من المعارضين كانوا ينتمون الى هذه الفئة •

كان عدد غير قليل من هؤلاء المعارضين من ذوى الارتباطات السابقة بثورة ٢٣ يوليو ، وكان همهم الأكبر هو الدفاع عن هذه الارتباطات • وتلك فى الواقع ظاهرة مؤسفة فى حياتنا السياسية المعاصرة : فيكفى أن يكون المرء قد احتل يوما ما موقعا فى الاتحاد الاشتراكى ، أو منظمة الشباب ، أو التنظيم الطليعى ، حتى يهب لمهاجمة كل من يتصدى بالنقد لممارسات ثورة يوليو ، وكأن هذا الناقد يوجه اليه هجوما شخصيا يتعين عليه أن يصده بهجوم مضاد ، يدافع به عن ارتباطه السابق ويبرره ، فى ثنايا دفاعه عن النظام كله وتبريره • والأمر الذى فات هؤلاء هو أن المنظور الذى كتبت منه لا علاقة له بالأشخاص وانتماءاتهم ، وانما هو منظور أوسع من ذلك بكثير ، يرصد التيارات والاتجاهات ويوضح جوانب القصور فيها ،

مستهدفا غاية أسمى بكثير من الانتقام من عهد معين أو تصفية الحساب مع المتعاونين معه . والأهم من ذلك أن التدهور الذى أصاب كافة جوانب حياتنا كان كفيلا بأن يجعل أصحاب الارتباطات السابقة ينسون أشخاصهم ويركزون تفكيرهم فى أوضاعنا المتردية ، وفى أفضل السبل لانقاذ وطننا من الهاوية التى ينزلق اليها بسرعة رهيبة . ولكن يبدو أن الحرص على تبرئة الذات وتبرير تاريخها السابق أهم لدى الكثيرين من مد يد المعونة الى الوطن الغارق .

وهكذا اعتقد الناصريون أننى لم أقصد ، من كل ما كتبت ، سوى عبد الناصر ، وأغمضوا عيونهم عن جميع الشواهد القاطعة التى تدل على أننى تصديت لأسلوب فى الحكم ، لا لأشخاص ، ولم أتعرض لعبد الناصر أو للسادات أو لهيكل الا بقدر ما كانوا يجسدون هذا الأسلوب فى فكرهم أو ممارساتهم . واعتقد بعض اليساريين أن انتقادى لهيكل ، فى الوقت الذى كان يخوض فيه معركة ضد المؤسسة الساداتية ، كان نوعا من السذاجة السياسية التى تؤدى موضوعيا الى خدمة المعسكر الساداتى . ولو كان هؤلاء قد أمعنوا التفكير فيما كتبت لتبين لهم أن النقد الذى وجهته الى أسس النظام الساداتى كان أكثر فعالية بكثير من انتقادات هيكل . ذلك لأن صورة السادات عند هيكل تظل دائما مهتزة غير محددة المعالم : فهو يصوره مغامرا غير وطنى فى شبابه قبل الثورة ، ثم واحدا من أقرب المقربين الى زعيم وطنى كبير ، ثم رئيسا للبلاد أعطاه هيكل ، خلال سنواته الأولى والحاسمة ، كل تأييده ، آملا أن « يمنحه فرصة » يمحو فيها تاريخه القديم المشين ، ثم قائدا لا يعرف كيف يدير ، سياسيا ، معركته العسكرية الكبرى ، ثم زعيما متهاونا ومستسلما أمام أعداء الوطن ... انها صورة خالية من التماسك والاتساق ، وما كان من الممكن الا أن تكون على هذا النحو ، اذ أن مواقف هيكل نفسه من السادات كانت أبعد ما تكون عن الاتساق ، وكانت تتراوح بين التأييد المطلق والعداء المطلق ، مع انكار العداء السابق وقت التأييد ، وانكار التأييد السابق وقت العداء . وهكذا كان الاهتزاز فى صورة

السـادات ، كما رسمها هيـكل ، تعبيرا عن التذبذب الحاد فى مواقف هيـكل نفسه • فهل هذا الموقف الأعرج هو الذى يمكن الاعتماد عليه فى نقد الظاهرة الساداتية ؟ ألن يكون النقد المتسق ، المتماسك، الصادر بدوافع موضوعية لا تشوهها ارتباطات أو تبريرات ، هو الأقدر على كشف السمات الحقيقية لهذه الظاهرة ؟

ولقد كان الوجه الآخر لهذه الرؤية الضيقة ، هو تصدى بعض الناصريين للدفاع عن هيكل بوصفه رمزا للناصرية ، ناسين تماما تلك المعركة التى خاضها بكل ضراوة ، جنبا الى جنب مع السادات ، فى عام ١٩٧١ ، ضد الكتلة الرئيسية من الناصريين الذين أطلق عليهم اسم « مراكز القوى » ، وتلك الخلافات الحادة التى نشبت بينه وبين أشد العناصر الناصرية اخلاصا لمبادئها ، وذلك الدور الحاسم الذى لعبه فى سنوات السادات الأولى من أجل تهيئة عقول الناس للتحول الحاسـم الذى كان يخطط له بذكاء من أجل هدم دعائم أسـاسية للناصرية •

أعود فأقول ان ردود الأفعال هذه كانت دليلا آخر على صحة التشخيص الذى قمت به فى هذا الكتاب للتشويه الذى لحق عقولنا بعد سنوات طويلة من الممارسات الملتوية المقيدة بألف قيد • فقد ظهر لى بوضوح كامل أن عددا لا يستهان به من مثقفينا ما زالوا يصرون على تصنيف المفـكرين السـياسيين فى اطار تلك الثنائية المحدودة : الناصرية أو الساداتية • فانت فى نظرهم لا بد أن تكون هذا أو ذاك • واذا انتقدت أحدهما فلا بد ـ فى رأيهم ـ أن يكون هذا النقد لحساب الآخر • أما أن يتخذ المفكر لنفسه موقعا خارج نطاق هذه الثنائية ، ويقف من الطرفين معا موقفا ناقدا متحررا ، كما حاولت أن أفعـل فى هذا الـكتاب ، فهذا ما يعجزون عن تصـوره أو استيعابه •

والحق أن هذا الكتاب سيكون قد حقق الهدف الذى يرمى اليه كاتبه لو استطاع أن يقنع القارىء بأن مصر أوسع وأرحب من أن

تختزل الى هذه الثنائية الضيقة المحصورة فى اطار ثورة يوليو ، وبأن العهدين الناصرى والساداتي ، وان اختلفا تماما فى مضمونهما وأهدافهما ، قد أخضعا مصر لأسلوب فردى فى الحكم كان هو المسئول عن القدر الأكبر من هـذا التدهور الذى نلمسـه فى كل جوانب حياتنا ، وهذا الانهيار القاتل فى معنويات الانسان • ولو لم يدرك القـارىء عن وعى طبيعة المنظور الاسـتقلالى الذى كتبت به هـذه الصفحات ، لأفلت منه الخيط الأساسى الجامع بينها ، وعجز عن فهم الهدف الحقيقى الذى يرمى اليه كاتبها •

فؤاد زكريا

ابريل ١٩٨٤

الفصل الأول

انتقام الأرشيف

لن أكون قد أضفت جديدا لو قلت ان هيكل ، فى « خريف الغضب » قد قال الكثير · ولكن الجديد الذى أود أن أضيفه هو ان ما لم يقله هيكل أهم وأخطر بكثير مما قاله ·

لقد أثارت المعلومات الهائلة التى فجرها هيكل فى كتابه ، والتى لم يكن أحد غيره يستطيع أن يصل اليها أو يعبر عنها بمثل هذه الدقة ، عاصـفة عاتية فى مصر ، سرعان ما امتدت الى سائر البلاد العربية · كان هيكل هنا يكتب ، لأول مرة ، « بصراحة » ، ولم يكن من العسير على القارىء الواعى أن يدرك أنه تخلى ، فى « خريف الغضب » ، عن الأسلوب الدبلوماسى الحذر ، وعن طرق التعبير غير المباشر التى كانت تميز « صراحاته » فى معظم الأحيان · كان هيكل هنا ، لأول مرة ، فى مواجهة حقيقية أمام حاكم كان نظامه لا يزال ، بعد موته ، يحتفظ بالكثير من أعراض الحياة ، بل كانت روحه لا تزال - فى رأى البعض - ترفرف بقوة على معظم جوانب الحياة الرسمية فى مصر · وجاءت المواجهة قاسية ، مريرة ، نافـذة بضرباتها الى الصميم ·

وحين بدأت المعركة الحامية حول الكتاب ، كانت تحمل سمة

فريدة يقف أمامها الفكر الواعى حائرا • فقد كانت ، بالنسبة الى الغالبية الساحقة من المصريين ، معركة ضد شبح مجهول • كانت الردود تتوالى ، بعضها مؤيد ومعظمها معارض ، دون أن يكون أحد قد عرف عن موضوع المعركة وأسبابها الا معلومات أولية نقلتها حلقات قليلة جدا من الكتاب ، وتسربت الى الجمهور قبل أن يصدر قرار المنع • ومع ذلك فقد استمرت المعركة بعد المنع ، وضد هذا الشبح المجهول ، بكل حدتها وعنفوانها • وكانت تلك المعركة ذاتها من أبرز أعراض ذلك المرض الذى عانى منه المصريون مرارا طوال الأعوام الثلاثين الأخيرة : أعنى أن يروا أجهـزة اعـلامهم تمتشق سيوفها بكل الحماسة والغضب ضد عدو لم تتح لهم فرصة معرفته •

فى هذه المعركة كان الاستقطاب واضحا : فقد أعطاها أنصار هيكل وخصومه طابع الصراع بين عهد السادات وعهد عبد الناصر • كان المصفقون المتحمسون لما كتبه هيكل هم أنصار عبد الناصر ، بحيث لم يقتصر اعجابهم بالكتاب على ما حواه من فضائح تمس العهد الساداتى ، بل كان من أهم أسباب ترحيبهم به ما احتواه من دفاع ، صريح تارة وضمنى تارة أخرى ، عن العهد الناصرى • ومن جهة أخرى فقد كان الناقدون الناقمون على الكتاب هم ، بلا اسـتثناء تقريبا ، من مؤيدى سياسة السـادات ، فلم يقتصروا فى هجومهم على تبرير تلك السياسة ، وانما اغتنموا الفرصة لكى يجروا مقارناتهم المألوفة بين العهدين ، ويثبتوا (على طريقتهم الخاصة) الى أى حد تمكن العهد اللاحق من اصلاح ما أفسده العهد السابق •

وهكذا كان هيكل ، فى نظر البعض ، شاهد صدق فضح عهدا فاسدا بأدلة لا تنكر ، وكان فى نظر البعض الآخر مفتريا على الحق مختلقا للأكاذيب ناشرا للباطل • ولم يكن أمام الجمهور الا أن يختار بين هذين الطرفين : فأنت اما مع هيكل ، فتصدق كل ما كتب ، واما ضده ، فتكذب كل ما قال •

أما كاتب هذه السطور فيؤمن ايمانا راسخا بأن هذا الاستقطاب للجماهير بين ناصريين وساداتيين ، وهذا الاختيار المفروض عليها

بين التصديق المطلق والتكذيب المطلق ، ما هو الا مظهر خطير لضيق الأفق السياسى الذى فرض نفسه على عقولنا فى العقود الأخيرة • فالقضايا الحقيقية التى تثيرها عملية « الفضح » فى كتاب هيكل ، لا تؤدى أبدا الى الاختيار بين عهدين ، وانما تؤدى الى القاء ظلال من الشك على مرحلة بأكملها تشمل العهدين معا ، ويمكن أن تشمل غيرهما أيضا • أما الاختيار الآخر بين التصديق والتكذيب فلا بد للعقل الواعى أن يتجاوزه • والموقف الذى أدافع عنه هو أن فى وسع المرء أن يصدق الكثير جدا مما قاله هيكل ، دون أن يكون مع ذلك مؤيدا لهيكل •

هذا الكلام قد يبدو لغزا غير قابل للفهم ، ولكن المعنى المقصود يظهر بوضوح من مثال بسيط : لو فرضنا ان أحد أفراد عصابة « المافيا » قد انشق عن الجماعة وأفشى أسرارها للمحقق ، هل سيكون هذا المحقق ملزما ، اذا صدقه فيما أدلى به من معلومات ، بأن يؤيده وينحاز اليه ؟ اننى لا أود أن يؤخذ هذا التشبيه بحرفيته ، ولكن كل ما قصدته منه هو أن أضرب مثلا لتلك الحالات التى يمكن أن يكون فيها أحد طرفى النزاع صادقا ، ومع ذلك لا يستحق التأييد ولا التمجيد • وهذا المعنى الأخير هو الذى يلخص موقفى من كتاب هيكل ، الذى أصدق الكثير مما احتواه ، وأرحب به لأنه قدم الى معلومات ما كانت لتصلنى لولا هيكل ، ولكنى فى الوقت ذاته لا أؤيد صاحبه ولا أشعر بتقدير كبير للبواعث التى دعته الى تاليفه •

ان ما يهمنى ، منذ البداية ، هو أن يكون موقفى واضحا كل الوضوح • ولست أطالب القارئ ، منذ هذه اللحظة ، بأن يقتنع برأيى ، لأن هذا الاقتناع ــ اذا حدث ــ سوف تنسج خيوطه ببطء وتدرج خلال حلقات متتابعة من حديث طويل ، ولكن ما أطالب به وأصر عليه هو ألا يكون هناك أى لبس فى الموقف الذى سأتخذه • فالقضايا الحقيقية التى يثيرها كتاب هيكل هى ، كما قلت ، تلك التى لم يصرح بها ، أو تلك التى تؤدى اليها كتاباته دون أن يقصد • والمشكلة التى تطل علينا من بين غلافى هذا الكتاب أوسع من أن تكون

مشكلة هيكل وحده ، أو السادات وحده ، أو عبد الناصر وحده · انها مشكلة أسلوب كامل فى الحكم ، كانت القضايا التى أشار اليها هيكل (ببراعة ودقة) مجرد عرض من أعراضه · وعلى الرغم من أننى سأشير فى كثير من الأحيان الى ما قاله هيكل فى « خريف الغضب » فان هدفى الحقيقى ليس التعليق على كتاب أو نقد مؤلفه ، بل ان هدفى هو الكشف عن تلك الظروف والأوضاع التى جعلت الكاتب ، والكتاب ، والرؤساء الذين يتحدث عنهم ، على ما هم عليه ·

ولكى يزداد موقفى وضوحا ، فانى أود أن أعلن منذ البداية أننى أؤيد هيكل فى الكثير مما قال ، ولكننى استنتج من كل ما قاله أمورا مختلفة كل الاختلاف ، تجعلنى معارضا لاتجاهاته العامة فى معظم الأحيان · ولست أود أن يستنتج الساداتيون من معارضتى لاتجاهات هيكل أننى أقف معهم على أى أرض مشتركة ، بل اننى أرفض على نحو قاطع أية محاولة منهم لاستغلال انتقاداتى لهيكل من أجل دعم موقفهم · فأنا ، بلا مواربة ، معارض للساداتية بكل قوة · ولكن هذا لا يعنى اننى أنحاز الى الطرف الآخر فى الاستقطاب السائد فى هذه الأيام ، بل اننى أكتب من منظور أوسع من هذا الاستقطاب بكثير ، ولا أقبل أن يجرنى أحد الى طرف من أطرافه ·

ان هيكل يقوم فى هذا الكتاب بمحاولة مستحيلة ، هى أن يقتطع عهدا من سياقه الكامل ، ويعزله عن سوابقه · وأية نظرة مدققه الى تاريخ العقود الثلاثة الأخيرة فى مصر تقنعنا باستحالة فصل قطعة من هذا التاريخ عن مقدماتها الضرورية · فلنسلم منذ البدء بأن لكل نظام فى الحكم شكلا ومضمونا · اما المضمون فهو اتجاه السياسات التى يتبعها ، واما الشكل فهو الأسلوب الذى يطبقه من أجل تنفيذ هذه السياسات · واذا كان من المسلم به ان مضمون العهد الساداتى مختلف اختلافا كبيرا عن مضمون العهد الناصرى ، فان من الحقائق التى ينبغى ألا تغيب عن الأذهان ان « شكل » الحكم ، أى أسلوبه ، كان متشابها الى حد كبير وبعيد طوال ثورة ٢٣ يوليو ، ويحمل معظم ملامحه الأصلية حتى اليوم· ولقد تحدث

هيكل أساسا عن الاختلاف ـ الذى ينبغى الاعتراف به ـ بين الاتجاهات السياسية عند عبد الناصر والسادات ، ولكنه كاد أن يغفل تماما الحديث عن التشابه بين أسلوب الحكم فى كلا العهدين ٠ وفى هذا الجانب الأخير يعد السادات امتدادا لمنهج فى الحكم أرست قواعده ثورة ٢٣ يوليو ، ويجوز انه أضاف اليه اجتهاداته « وابتكاراته » الخاصة هنا أو هناك ، ولكن جوهر الأسلوب واحد من البداية الى النهاية ـ وأعنى به الحكم الفردى الذى يؤمن بحقيقة واحدة ، هى ما يعبر عنه الحاكم ، ويقمع كل ما عداها ٠

وهكذا فان كل اشارات هيكل الى أخطاء ممارسات الحكم الساداتية قد تكون صائبة ، ولكن الأمر الذى يغفله هو ان من المستحيل فصل النتيجة عن السبب ، وان الصورة تكون ناقصة نقصا خطيرا لو اكتفينا بمظهرها الأخير وتجاهلنا امتداداتها السابقة ٠ ومجمل القول ان هيكل كان على حق عندما كشف العيوب الخطيرة للنظام الساداتى ، ولكنه كان مقصرا تقصيرا مخلا حين عزل هذا النظام عن سياقه ، ولم ينظر اليه على انه جزء من ظاهرة أوسع منه بكثير ـ مع اعترافنا الكامل بأن هذه الظاهرة بلغت قمتها المأساوية فى العهد الساداتى على وجه التحديد ٠

أما الخطأ الرئيسى الثانى الذى اتسم به موقف هيكل ، والذى يعد بدون مبالغة عرضا من أعراض مرض أوسع نطاقا ، فهو انه استثنى نفسه تماما من اللوم وصب اتهاماته على الغير ، وكأنه كان طوال الوقت مشاهدا محايدا ، أو ناصحا أمينا لا يستمع اليه أحد ٠ ولقد بحثت طوال الصفحات التى قاربت الستمائة فى كتاب هيكل ، عن سطر واحد من النقد الذاتى ، فلم أجد ٠ وكان أقصى ما قاله عن نفسه هو انه تصور ان السادات سيفعل كذا أو كذا ولكن تصوراته لم تتحقق ، ويكون المعنى الضمنى دائما هو ان الخطأ فى عدم تحققها يرجع الى ان الطرف الآخر لم يستمع الى نصحه ، أو لم يفعل ما كان هيكل يأمل أن يفعله ٠ وكل من عاش هذه الفترة وتابعها بوعى ، ولم يفقد ذاكرته تحت وطأة الدعايات المتلاحقة التى تتخذ كل يوم

موقفا مناقضا لليـوم السابق ، يعلم حق العلم أن هيكل كان جزءا لا يتجزأ من معظم الأخطاء التى يعيبها على السادات ، وان دوره قد بلغ ذروة التأثير فى سنوات التكوين الأولى ، التى تشكلت فيها معالم السياسة الســاداتية الجديدة ، والتى ترجع اليها معظم التطورات اللاحقة • هذه حقيقة لابد أن يثبتها التاريخ على نحو قاطع ، ومع ذلك فان من يبحث عند هيكل عن كلمة واحدة تعبر عن تأنيب الضمير أو مراجعة النفس أو نقد الذات على ممارسات غرست البذرة الأولى والأساسية للشجرة التى نمت معوجة فيما بعد ، سيكون بحثه قد ضاع هباء •

عند هذه النقطة لا يملك المرء الا أن يتساءل : ما الذى أتاح لهيكل كل هذه الفرص التى مكنته من أن يوجه نقدا موجعا للعهد الساداتى ، اذا كان هو ذاته قد أعطى هذا العهد ، بجهوده الواعية والمتعمدة ، معالمه الأولى التى حددت قسماته وملامحه لوقت طويل فيما بعد ؟ هنا لا يملك المرء الا أن يفكر مليا فى قول هيكل ، فى مستهل كتابه ، ان فكرة الكتاب قد طرأت على ذهنه منذ اللحظة الأولى لدخوله المعتقل فى سبتمبر ١٩٨١ ، ثم قوله فى الفصول الأخيرة من الكتاب ، انه لم يكن يتصور ان السادات سيقدم على اعتقاله ، على الرغم من كل ما بينهما من خلافات •

لقد كان لدى هيكل سلاح جبار يخشاه الجميع ، وهذا السلاح هو الذى جعله واثقا من انه لن يعتقل • فلما تجاوز السادات الحد ، فى لحظة يأس لم يترك فيها اتجاها من اتجاهات الفكر والســياسة والعقيدة فى مصر الا واعتقل أهم ممثليه ، قرر هيكل أن يصوب الى السادات طلقات سلاحه الجبار : الأرشيف •

لقد كان هذا السلاح ، منذ البداية ، نتاجا لظاهرة الحكم الفردى التى ازدهر فى ظلها هيكل • فمن خلال صلته الوثيقة بعبد الناصر ، كانت الأسرار والوثائق الخطيرة تأتيه وحده دون غيره ، وكان هو ذاته يحرص على تسجيل كل صغيرة وكبيرة تدور حوله ، مدركا بذكاء ان كل كلمة تسجل يمكن أن تكون مصدر قوة له فى يوم من الأيام •

ولم تكن البراعة الصحفية وحدها ، ولا الذكاء الشخصي وحده ، هما اللذان أتاحا له هذه الفرص ، بل ان انعدام الديمقراطية وسيادة جو التكتم والقرار الفردى المفاجىء ، جعل من الضرورى أن يضيق نطاق المطلعين على الأسرار الى أبعد حد • وهكذا اطلع هيكل على ما لم يكن متاحا للآخرين ، أو مطروحا على الناس ، وهداه ذكاؤه الى أن يسجل أولا بأول كل ما هو « خفى » و « ممنوع » • ومنذ أن تبين له أن الناس يتلهفون على قراءة الأسرار التى لا يعرفها أحد صباح يوم الجمعة ، أدرك هيكل أهمية « سلاح الأرشيف » من حيث هو مصدر قوة وحماية له فى نفس الوقت •

بل ان أحد الكتاب الساداتيين ، ممن كانوا على صلة وثيقة بهيكل«١» ، يذهب الى ان سلاح المعلومات كان يستخدم عند هيكل فى العطاء أيضا • فهو يرى أن من أهم أسباب المكانة الخاصة التى اكتسبها هيكل لدى عبد الناصر ، منذ أول سنوات الثورة ، انه كان يزود زعيم الثورة بقدر هائل من المعلومات التى تتجمع لديه من قراءاته الواسعة ، والتى كان عبد الناصر – وهو لا يزال ضابطا حديث العهد بالحكم – فى أشد الحاجة اليها • وهكذا بدأ هيكل بالعطاء ، وفيما بعد سددت له هذه الديون أضعافا مضاعفة ، عن طريق فتح خزائن الأسرار كلها له • وهكذا كان « سلاح الأرشيف » ذا حدين : يعطى أولا ، ثم يأخذ بعد ذلك بلا حدود •

ولكن ، على الرغم من كل هذه الفرص الاستثنائية التى أتيحت لهيكل وحده ، فى ظل أسلوب حكم فردى مطلق ، وكشفت له عن القوة الهائلة التي تكمن فى « سلاح الارشيف » ، فان المرء لا يملك الا أن يشعر بوجود سر خفى فى تلك المقدرة الهائلة على جمع المعلومات واختزانها واعادة استخدامها واستثمارها فى الوقت المناسب • لقد سخر هيكل من الضباط الذين قلبوا بيته الريفى ، وقت اعتقاله الأخير ، بحثا عن أوراقه السياسية ، مؤكدا لهم ان الرئيس ذاته

---

(١) انظر : صلاح منتصر : « الأستاذ هيكل • شاهد أم شريك ؟ » الأهرام ١٩٨٣/٥/١

يعلم انه (أى هيكل) لا يحتفظ بشيء من أوراقه في بيته ، وأنه يبعث بها أولا بأول الى خارج البلاد . وهكذا كان الارشيف بالنسبة الى هيكل ، بالاضافة الى كونه مصدر قوة ، تأمينا على الحياة ، وضمانا ضد أي شكل من أشكال الاضطهاد : فهو يحمل معه أسرار الجميع ، بالوثائق ، ويوم يمسه سوء ستعلن هذه الاسرار وتفضح كل شيء ، ومن هنا كان الحرص على أن تظل خارج البلاد . ولكن يظل السؤال قائما : هل يستطيع فرد واحد ، مهما كان ذكاؤه وتشعب قدراته ، أن يجمع كل هذه المعلومات ، ويرتبها بهذه الدقة ، ويبعث بها أولا بأول الى الخارج ؟ لست أدري ، ولكنني كلما أمعنت الفكر في هذه الظاهرة بدا لى انها أعقد وأوسع نطاقا من امكانات أى فرد ، بل من امكانات أي جهاز في دولة متخلفة ، وخيل الى اننا نجد أنفسنا هنا على مستوى يكاد يصل الى مستوى أجهزة المخابرات فى الدول الكبرى .

وهكذا فان هيكل عندما وجد نفسه معتقلا ، وحين تبين له أن السادات تجاوز الحدود وتحدى قدراته ، سلط عليه أرشيفه الجبار ، وحقق لنفسه انتقامه الشخصي من حاكم كان بيته بالفعل من الزجاج، وكان متهورا ويائسا عندما اختار هيكل بالذات ليكون واحدا ممن يرميهم بالحجارة .

على أن الأمر الملفت للنظر ، والذى تتجلى فيه سخرية الأقدار بحق ، هو ان « سلاح الأرشيف » ، مثلما انه مصدر قوة هيكل ، هو أيضا مكمن الضعف فيه . ذلك لأن من يستخدم هـذا السلاح يستطيع بأكثر الامكانات تواضعا ، أن يصيب هيكل في مقتل . ويكفى أن يرجع بانتظام الى قائمة كتاباته فى أواخر الأربعينات ، ثم فى مختلف مراحل الخمسينات والستينات ، وأخيرا فى أوائل السبعينات ، ويكفى أن يقارن هذه الكتابات بعضها ببعض ، أو بما يظهر منها فى المرحلة الراهنة ، لكى يجد لديه مادة هائلة تستخدم ضد هيكل بسهولة تامة . وحسبنا أن نضرب لذلك مثلا واحدا مما نشر فى الصحف المصرية أخيرا . فها هو ذا كاتب يتجاسر فيقول : « ان تاريخ الأستاذ محمد حسنين هيكل صفحة سوداء فى تاريخ

مصر • لقد اتهمه الرئيس محمد نجيب بالخيانة لحساب دولة أجنبية ، وكتب ذلك فى كتابه « كلمتى للتاريخ » ، كما اتهمه مايلز كوبلاند فى كتابه : « بغير عباءة أو خنجر » بأنه كان عميلا مخلصا • كما اتهمه خروشوف بنفس التهمة وذكر له قيمة المبالغ والشيكات التى تسلمها من وكالة المخابرات المركزية ، وكان ذلك عندما سافر سيده (يقصد عبد الناصر) الى روسيا واصطحبه معه فى هذه السفرة ، فلما واجهه نيكيتا خروشوف بهذه الفضيحة المرة اضطر أن يسافر فى اليوم التالى عائدا الى مصر »(٢) •

هنا نجد « سلاح الأرشيف » يستخدم ضد أبرع من أتقنوا استخدامه • واذا كنا لا نملك الحكم على مدى صحة الوقائع الواردة فى هذا الكلام ، فان الاتهامات التى تحدث عنها الكاتب قد وجهت بالفعل الى هيكل على أيدى نجيب وكوبلاند وخروشوف ، وكل مافعله الكاتب هو انه رجع الى الوراء قليلا مقلبا صفحات الجرائد فى السنوات الماضية • وما هذا الا مثل واحد يكشف عن الوجه الآخر لسلاح الأرشيف ، عندما يسدد الى عنق صاحبه •

---

(٢) انظر : محمد على ابو طالب : « انى أتهم ! » ـ الأخبار ١٩٨٣/٤/٣٠ •

الفصل الثانى

من الذى يشتم مصر

أثار كتاب هيكل ، أو على الأصح الجزء الضئيل الذى نشر منه فى مصر ، عاصفة عاتية من ردود الفعل • وفى رأيى أن دراسة ردود الفعل هذه ، باتجاهاتها المختلفة وتشعباتها الكثيرة ، تزودنا بذخيرة هائلة نستطيع من خلال تحليلها المتعمق ، أن نفهم الكثير عن طبيعة التشويه الفكرى الذى أصبحت بلادنا تعانيه ، وعن شكل التضليل الاعلامى الذى يسلط على عقولنا ليل نهار • ففى ردود الفعل هذه تتحدد مواقف كثيرة وتنكشف وتظهر حقيقة الأفكار التى ظلت كامنة ، مستترة ، مغلفة بشتى أنواع الأقنعة الخداعة • ومن خلال ردود الفعل هذه يتضح اتجاه المصالح الحقيقية فى مصر ، اذ كان معظم المدافعين عن السادات من المنتفعين منه ، أو من أصحاب المصالح التى ازدهرت فى عهده ، وان لم يمنع ذلك من وجود بعض المتأثرين بطوفان الاعلام • ومن خلالها ينكشف تهافت وتناقض الشخصيات التى كان لها دور مصيرى فى تاريخ مصر ، ودور أساسى فى تشكيل عقلها ، وهو حكم لا أستثنى منه هيكل نفسه • ومن خلالها تظهر للعيان جريمة الحكم الفردى التى لا تغتفر ، اذ يتبين لنا بوضوح مدى التزييف الذى طرأ على الوعى السياسى المصرى ، متمثلا فى عدد غير قليل من كبار مثقفيه ، بعد ثلاثين عاما من حكم

يفترض أنه ثورة تستهدف ، على وجه التحديد ، تحرير الوعى من أوهامه ٠

واخيرا ، فمن خلال ردود الفعل نستطيع أن ندرك ان كان عهد السادات قد انتهى حقا ، أم أن آثاره ما زالت تدب فيها الحياة بكل عدوانية وتحفز ٠

ان دراسة العقل المصرى وتحليل سماته كما تتمثل فى اتجاهات ردود الفعل على هيكل ، هى فى نظرى أهم الأهداف ٠ ولم يكن كتاب هيكل فى هذه الحالة الا فرصة لكشف أساليب التفكير المستورة ، التى تظل فى حالة كتمان حتى تطرأ أزمة أو محنة تفجرها ٠ وهكذا سوف أتوقف طويلا عند ردود الفعل ، وأخضعها لتحليل سأحاول أن يكون دقيقا ، آملا أن أتمكن عن طريقها من القاء الضوء على بعض سمات العقل المصرى ــ التى تجمعها روابط مشتركة كثيرة مع العقل العربى بوجه عام ــ بعد ثلاثين سنة من حكم ثورة ٢٣ يوليو ٠

« هذا الرجل (السادات) قد اخترناه جميعا زعيما لهذا البلد ، واختيار زعيم فيه تجسيد للشعب الذى اختاره ، وبالتالى فان كل ما يقال عن هذا الزعيم يعتبر فى حقيقته نيلا من الشعب الذى اختاره » ٠

قائل هذه الكلمات أستاذ كبير فى القانون ، فى اجتماع للمجلس الأعلى للصحافة خصص لمناقشة كتاب هيكل ، ونشرته جريدة « الأهرام » فى ٢٩ ابريل ١٩٨٣ ٠ والأساس الذى يبنى عليه تفكير أستاذ القانون هو أن الحاكم تجسيد لبلده ، ما دامت قد اختارته بارادتها ، ومن ثم فان أى هجوم من هيكل أو غيره على السادات هو هجوم على مصر كلها ٠

هذا النوع من التفكير بلغ ، فى السنوات الأخيرة ، من الانتشار حدا يحتم علينا أن نتوقف طويلا عنده ٠ فما من أحد منا الا وتعرض مرارا لتلك التجربة المثيرة والمستفزة ، تجربة المناقشة

مع شخص يؤكد أن أى نقد للحاكم هو انتقاص من قدر بلاده ، وأن الوطنية الحقة تحتم على المرء ألا يسىء الى الحكام ·

ولا شك أن عبارة أستاذ القانون ، السابقة ، هى تعبير نموذجى عن وجهة النظر هذه :

أ - فهو يستخدم لفظ « الزعيم » مرتين ، وهى نفس الكلمة التى كان يطلقها النازيون على هتلر (الفوهرر) والفاشيون على موسولينى (الدوتشى) · وليس هذا استخداما اعتباطيا ، اذ كان يمكنه أن يقول : الحاكم ، أو رئيس الدولة ، ولكن اصراره على لفظ « الزعيم » هو جزء لا يتجزأ من العقلية التى توحد على نحو مطلق بين شخص الحاكم وبلده ·

ب - وهو يرى هذا الزعيم « تجسيدا » للشعب ، ولم يقل «رمزا» ، لأن الرمز لا يتعين أن يكون مشابها لما يرمز اليه (اللون الأخضر رمز لامكان مرور السيارات مثلا) ، بل تفصل بينهما مسافة ما ، أما التجسيد فهو اندماج كامل · بل ان الزعيم يصبح فى هذه الحالة « خلاصة » شعبه وأنقى تعبير عنه · وهذا يفترض ، بطبيعة الحال ، أن الشعب كتلة متجانسة لا تمايز فيها ولا اختلاف ولا تباين فى الرأى أو الاتجاه ، حتى يستطيع شخص واحد أن يكون تجسيدا له · ومن هنا فمن المؤكد أن الانجليز ، مثلا لابد أن يسخروا ممن يرى فى « ثاتشر » تجسيدا لهم ، اذ أنها حتى لو كانت تجسد المحافظين ، فماذا نقول عن العمال والأحرار ؟ وفضلا عن ذلك فان الزعيم الذى يجسد شعبه هو ، بحكم تعريفه ، غير قابل للتغيير ، والا فكيف نتصور أن يتخلص شعب ممن يجسده ؟

جـ - وأخيرا ، فان أستاذ القانون الكبير يتحدث أربع مرات ، فى أقل من ثلاثة أسطر ، عن « اختيار » الشعب للزعيم · وهكذا فانه ، بكل وقار القانون وهيبة الأستاذية ، يعلن ثقته المطلقة وتصديقه الكامل لاستفتاءات ٩٩٫٩٪ ، ويرى فيها أساسا يسمح للمرء بأن يقول باطمئنان تام وبضمير مستريح : « هذا

الرجل قد اخترناه جميعا » •

هذه الكوارث أو الفواجع الفكرية تتجمع كلهـا فى أقل من ثلاثة أسـطر ، وتعبر بوضوح صـارخ عن تدنى مستوى الوعى السياسى والاجتماعى عنـد من يفترض فيهم أن يكونوا معلمين ومرشدين لغيرهم فى هذا الميدان ، وهى فى واقع الأمر أبلغ دليـل على نوع العقول التى توحد بين الحـاكم وبلده ، وترفض أى نقـد للحاكم بحجة أن هذا النقد اهانة لوطنه ونيل منه •

•

على أن لهـذا اللون من التفكير ، أعنى التوحيد بين الحـاكم والوطن ، وجها آخر ربما كان أشد حدة ، هو ذلك الذى يشيع بين المصريين المغتربين على وجه التخصيص • فظروف الاغتراب تزيد من قوة التوحيد بين البلد وحاكمها ، ومن هنـا كان من ردود الفعـل الأكثر شيوعا ، بين المصريين العاملين فى البلاد العربية بوجه خاص ، استنكار ما كتبه هيكل باعتباره « شتيمة لمصر » •

هذه ظاهرة لم تتمثل فى حالة هيكل وحده ، بل تعرض لهـا كل من يكتب كتابة نقدية عن الأوضاع المصرية فى احدى الصحف العربية • كما أن من يستخدمون هذه الحجـة ليسوا هم المواطنين المغتربين العـاديين فحسب ، بل ان المرء يجدهـا تتردد على أعلى المستويات • وأسـتطيع ، من تجربتى الشخصية ، أن أؤكد أن النسبة الغالبة من أساتذة الجامعات المصريين العاملين فى بلد كالكويت تحتج بشدة على أى مقـال يوجه نقدا لحاكم مصر أو حكومتهـا ، باعتباره هجوما على مصر • وهكذا فان شيوع هذه الحجة بين المغتربين يفوق بكثير انتشارها داخل مصر ذاتها ، ولذا كانت تحتاج الى وقفة متأنية تناقش الأسس التى ترتكز عليها بهدوء •

١ ـ أول أساس لهذه الحجة هو ذلك الذى أوردناه من قبل ، وأعنى به أن الحـاكم تجسيد لبلده • ويزداد الحرص عـلى فكرة التجسيد هذه عندما يكون الشخص مغتربا ، بحيث تتضاعف حساسيته ازاء أى نقد يوجه الى الحـاكم • وكم من مصرى

مغترب ينتقد كتاب هيكل ، على سبيل المثال ، انتقادا مريرا ، لا لأنه غير مقتنع بما يتضمنه من وقائع ، بل لأنه ، حتى لو كانت كل كلمة فيه صحيحة ، يسيء الى صورة « مصر » ٠

ان قليلا من التفكير يقنعنا بأن الحريص حقا على سمعة بلاده هو الذى لا يوحد بينها وبين حاكمها ٠ وفى حالة بلد كمصر يكون من المخجل حقا أن يساوى المرء بين ذلك التاريخ العريق ، والحضارة الأصيلة ، بين بلد النيل والأهرام والأزهر ، وبين تصرفات حكام أفراد يمكن أن يكون الكثيرون منهم مصابين بجنون العظمة أو داء الاستبداد والبطش والادعاء ٠ ان من يعتز ببلده وتاريخه حقا هو ذلك الذى يعلن فى كل مكان ، وأمام الجميع ، أن مصر ليست مسئولة عن أخطاء حكامها ، وينزه بلده عن تلك النقائص التى يمكن أن يتصف بها هذا الحاكم أو ذاك ٠ أما ذلك الذى ينصب نفسه محاميا عن كل خطأ يرتكبه الحاكم ، متوهما أنه يدافع على هذا النحو عن وطنه ، فهو فى الواقع الذى يسيء الى هذا الوطن أبلغ اساءة ٠ ولو اتخذت مسألة التوحيد بين الحاكم والوطن قاعدة عامة . لكان علينا جميعا أن نحمل بلدا كمصر أخطاء فاروق والخديوى توفيق والحاكم بأمر الله وقراقوش ٠

٢ – ولكن أصحاب هذا الموقف يلجأون ، عادة ، الى اضافة حجة أخرى ، هى الاشارة الى الفارق بين النقد داخل الوطن والنقد خارجه ٠ ففى استطاعتك أن تنقد الأوضاع كما تشاء ما دمت فى بلدك ، أما اذا كنت فى بلد آخر فان الواجب يقضى عليك بأن تمتنع عن النقد ، بل تتصدى له بكل قوة ، حتى لا تترك « للغرباء » فرصة « الشماتة » فى وطنك ٠ ويشارك الحاكم ذاته فى هذه الحجة : فهو يهاجم بكل العنف أولئك الذين « يشتمون مصر » فى الخارج ، وربما استخدم التعبير المألوف « نشر الغسيل » ، ويجد هذا الرأى صدى لدى الكثيرين ممن يتقبلون ما يقرأونه أو يسمعونه بلا تفكير ٠ ولكن الأمر

المؤسف هو أن الأمر لا يقتصر على هؤلاء ، بل ان نسبة كبيرة من المثقفين الذين يشغلون مراكز علميـــة واجتماعية مرموقة تردد فى كل مناسبة هذا المبدأ : « انتقد بلدك فى الداخل كما تشاء ، ولكن عليك فى الخارج أن تدافع عنها (والمقصود هنا بالطبع : تدافع عن حكامها) بالحق أو بالبـــاطل ، ولا تسمح لأحد بمهاجمتها (والمقصود : مهاجمة حكامها) » ٠

فلنناقش اذن هذا المبدأ الخطير ، المنتشر على أوسع نطاق بين أوساط المصريين المغتربين على مختلف مستوياتهم :

أولا : هـــــذا المبدأ يفترض أن العرب ، الذين يقيم هـــؤلاء المصريون فى بلادهم ، هم بالنسبة اليهم « غرباء » ٠ والأمر الملفت للنظر حقا هو أن نفس هؤلاء الذين يفكرون بهـذا المنطق يمكن أن يتحدثوا باستفاضة ، فى مجال آخر ، عن وحدة العروبة والمصـــير المشترك والحواجز المصطنعة بين الأقطار فى الوطن العربى الواحد ، ولا يدركون التنـــاقض الصارخ بين حديثهم المتحمس هـــذا وبين نظرتهم الى العرب على أنهم « غرباء » لا ينبغى أن تطرح مشاكل مصر الداخلية أو الخارجيـــة أمامهم ، ولا ينبغى أن تتاح لهم فرصـــة « الشماتة » فى مصر ٠ فكيف يسمح هـــؤلاء لأنفسهم بأن يكونوا اقليميين الى أقصى حد فى جانب ، ووحدويين متحمسين فى جانب آخر ؟ أليس من الواضح أن الايمان الحقيقى بوحدة العروبة يحتم على المرء ألا يجد فارقا بين المصرى وأى عربى فى نقد الممارســـات الخاطئة لأى نظام من الأنظمة ، سواء أكان هذا النظام مصريا أم لم يكن ؟

ان العرب ، من غير المصريين ، لا يهتمون بأوضـــاع مصر من أجل « الشماتة » ، كما يتصور قصار النظر هؤلاء ، بل ان ما يحدث فى مصر من مد وجزر ، ومن تقدم أو تخلف ، هو الشغل الشـــاغل لكل عربى لسبب بسيط : هو انه لابد ، عاجلا أو آجلا ، أن ينعكس على بلاده ايجابا أو سلبا ٠ وما من عربى مستنير الا ويتابع سياسة مصر بكل ما يملك من ترقب واهتمام ، لأنه يعلم أن مفتاح المنطقة

كلها هناك ، ولأنه يخشى على بلده من أن يلحقها أى مكروه يصيب مصر قبلها · وهكذا فان الاهتمـــــام الزائد الذى يبديه أى عربى بأوضاع مصر ، يظل فى واقع الأمر اعترافا بمكانة مصر الرئيسية فى الوطن العربى ، حتى لو اتخذ شكل انتقاد مرير لأوضـــاعها · فلماذا لا يبدى أحد اهتماما بانتقاد ما يحدث داخـــل موريتانيا أو جيبوتى مثلا ، حتى لو تراكمت الأخطاء فى ممارســات حكام هذين البلدين ؟ ·

ثانيا : يفترض هذا المبدأ أن فرص النقد مكفولة داخل مصر · ولكن أصحابه يخدعون أنفسهم ، فى الواقع ، خـداعا مكشوفا حين يتظاهرون بالوطنية فيقولون : انتقد حكام مصر فى داخلها كـــما تشاء أما فى خارجها فلا · من الذى يستطيع أن ينتقد حكام مصر فى داخلها « كما يشاء » ؟ لقد ظل كتاب مصر ومثقفوها الذين يحملون هموم مصر على أكتافهم يحاورون ويناورون ، لمدة ثلاثين عاما ، كلما وجدوا أمامهم ممارسات خاطئة · وكم من نقد كان يمكن أن ينقذ البلاد من كوارث رهيبة ، عوقب موجهه أو أرغم على السكوت ، أو اضطر ـ على أحسن الفروض ـ الى التعبير عنه بحذر والتواء حتى يمكن أن يجد طريقه الى الناس وسط الرقابة الصـــارمة · فلماذا نغالط أنفسنا ونتصور أن من ينتقد فى الخارج يفعل ذلك طواعية ، وانه كان يستطيع أن ينقـــد فى الداخل ولكنه اختار ـ لمصـــالح خاصة ـ منبرا للتعبير خارج بلاده ؟ ·

ثالثا : من الممكن أن يدرك المرء ، حين يعمل فكره قليلا ، أن معظم أصحاب هذا المبدأ يقومون بعملية اسقاط لخلافاتهم الصـــغيرة فى العمل ، ومنافساتهم الشخصية مع جنسيات عربيـــة أخرى فى نطاق العلاقات الفردية الضيقة ، على موقفهم السياسى العام · فكل منهم يتصور أن ظهور نقد للأوضاع المصرية فى جريدة صـــباحية سيجعل زميله أو رئيسه العربى فى المكتب أو المصنع يكسب نقطة على حسابه حين يفتح الجريدة ، وينتهز الفرصة للتشفى منه · وهذه نظرة طفولية ضيقة تخلط بين العلاقات الشخصية والشئون الوطنية

العامة ، وان كانت للأسف واسعة الانتشار حتى على أعلى المستويات٠
ان هذا الخلط بـــين المستوى الشخصي للسلوك ، وبين تقييم العمل السياسى العام ، هو آفة من أخطر الآفات فى تفكيرنا المعاصر ، وهو علامة واضحة على أن تربيتنا السياسية بعيدة كل البعـد عن ذلك النضوج الذى لابد منه لقيام نهضة حقيقية ٠ وسوف تتاح لنا ، خلال معالجتنا لجوانب الموضوع الذى نتناوله في هـــذه الدراسة ، فرص كثيرة لرؤية أمثلة أخرى لهذا الخلط ٠ ويكفى أن نقول الآن ان الــكلام عن « التشفى » أو « الشماتة » حين يكون الأمر متعلقـــا بالسياسة العامة لبلد من البلاد ، هو مظهر للبدائية فى التفكير ٠ أما « نشر الغسيل » وهو للأسف تعبير ما زال يستخدمه مسئولون كبار ــ فهو تعبير مضحك ومؤسف في آن واحد ٠ وليقل لى هواة هذه التعبيرات : هل سمع أحد منكم واحـــدا من أنصار ريجان أو ميتران يتحدث ، فى معرض تقييمه لسياسة بلاده ، عن «الغسيل» ؟
ان الفكرة الكامنة من وراء هذا هى فكرة «الستر» ، وهى مبدأ أخلاقى مذموم حتى على المستوى الفردى ٠ ففى أخـــلاقنا الشعبية نزوع شديد الى التغطية على العيوب ، الى درجة أن افتضاح هـــذه العيوب ومعرفة الآخرين بها هو فى نظرنا شر يفوق العيوب نفسها٠ وكثـــيرا ما نتصرف بحيث نتغاضى عن أخطر أنواع الآثام ما دامت « مستورة » ، ومن هنا كان « الستر » أمنية غالية فى تعبيراتنـــا الشعبية المـألوفة ٠ ولكن الخطأ الفكرى والأخـــلاقى يتضاعف حين ننقل هذا المبدأ الى ميدان السياسة ، فندعو مواطنينا الى السكوت على أوضـــاع جائرة حتى لا تفتضح أمام الآخرين ، ونطالبهم بألا « ينشروا الغسيل » بدلا من أن نطالب أنفســـنا بأن نبقى غسيلنا نظيفا على الدوام ٠

وهكذا تكشف لنا ردود الفعـــل على كتاب هيكل عن أخطاء فكرية فادحة ترسخت في عقولنا وسرت فيها مسرى البديهيات التى لا تناقش ، ويتبين لنا أن توحيدنا بين تصرفات الحاكم وبين سـمعة

بلاده هو أبلغ دليل على أن لعبة الحاكم الفرد لا تقتصر على من يمارسها بنفسه ، بل ان الذين تمارس عليهم هذه اللعبة قد اندمجوا فيهـــا وانتقلت عدواها اليهم دون أن يشعروا ، وان الخاضع للاضطهاد قد تقمص الكثير من أفكار من يضطهده ، وان الطغيان أصبح جزءا من تكوين المحكوم ، لا الحاكم وحده ، الى حد انه أصبح يوحد نفسه ، وبلده ، وكرامته ومكانته ، مع شخص الحاكم المطلق ، ويقدم بتفكيره الخاص أقوى دعامة لذلك الاستبداد الذي يكتوى بناره ليل نهار ٠

الفصل الثالث

لعبة الأحياء والأموات

حين نمضي في رحلة الكشف عن مظاهر تزييف الوعي وانهيار العقل والمنطق ، كمـــا تمثلت في ردود الفعل على كتــاب هيكل ، ستظهر لنا أمثلة أخرى مؤسفة لذلك الخلط الذي أصبح سائدا على كافة الأصعدة ، بين أساليب الناس في التعامل معا على المســـتوى الشخصي ، وأســـاليبهم في النظر الى أمور المجتمع العامة ، عـــلى المستوى السياسي • ولكنا سنكتشف أيضا أن قدرة المزيفين عـــلى الخـــداع وصلت الى حد من الجرأة ، بل من الصفاقة ، يفوق كـــل تصور ، وأنهم ما كانوا ليبلغوا هذا المدى لو لم يكونوا قد اعتادوا النظر الى الجمهور على أنه قطيـــع ينقاد ، بلا عقل ، في أي اتجـــاه يفرض عليه • وهذا التعالي على الناس ، والاعتقاد بأن أية أكذوبة يمكن أن تمر عليهم ، ليس الا النتيجة الطبيعية لجو القهر المخيم منذ أمد بعيد ، والذي أشاعه عهد لا يجعل للجماهير من دور ســـوى التصفيق والتصديق •

لنستمع الى كاتب كبير كان له يوما دور بارز في الحـــركة الوطنية المصرية ، ولكنه انجرف في تيـــار التضليل السياسي منذ السبعينات ، يعلق على كتاب هيكل فيقول : « لقد اغتالوا حياته في ٦ أكتوبر ، عيد انتصاره الحربي ، وفي ٢٥ ابريل عيـــد انتصـــاره

السلمي يحاولون اغتيال سمعته ٠٠ اننا نصغر في عيون الآخرين ، ويبدو بعض كتابنا بلا وفاء ، يحركهم الانتقام وتضطرب في أيديهم الموازين ٠٠ ان ما كتبه هيكل ٠٠ ليس تحليلا ، انما هو التشهير بعينه ، هو الاعتداء على حرمة رئيس مات ٠٠ وعلى سمعة وطن بأسره ٠٠ من قال ان كاتب التاريخ من حقه أن يهدر الحرمات ، ويشهر بسمعة الرجال والنساء بلا دليل ؟ من قال ان كتابة التاريخ تعني العدوان على سمعة الذين هم في ذمة التاريخ ، ومتى كانت كتابة التاريخ تمزيقا للأشلاء ؟ »(١) ٠

ولنستمع ، بعد ذلك ، الى أستاذ مرموق في الطب ، وأمين عام لنقابة الأطباء ، وهو يهاجم الصحيفة التي نشرت مقالات هيكل الأولى قبل أن تصادر ، فيقول : « هذه الصحيفة صدرت في ظل الحريات وقانون الأحزاب التي أرسى قواعدها من أرادوا نهش لحمه حيا وميتا لا لشيء الا لأنه اتخذ موقف الصدق مع شعبه واستجاب لمطلب امته وأعلن عداءه للشيوعية ٠٠ » ٠

ويواصل الطبيب الكبير كلامه قائلا : « لا أظن ان مصريا لم يتابع جنازة السادات ولم تدمع عيناه ولم يكتو قلبه لوعة وحزنا على النهاية التي أودت بحياة رئيس مصر ورمزها » ٠٠ ثم يقول « لقد بلغ به الغضب قمته عندما رأى من مد يديه اليهم بالخير وفتح لهم أبواب الحرية وسمح لهم بالتعبير عما يجيش في صدورهم من رأى يمدون اليه أيديهم بالشر وأقلامهم بالقذف »(٢) ٠

وأخيرا ، يتخيل كاتب لم يشأ ذكر اسمه أن السادات قد تولى الرد على هيكل ، فيتحدث بلسانه قائلا : « كرهت لانسان أن ينزع مثلي من منامه فأوقفت زوار الفجر ، ومقت لآمن انتهاك حرمته فأحرقت أشرطة الأسرار ومنعت التسجيل والتصنت ، وتصديت لشريعة الغاب فأغلقت المعتقلات ، وآمنت بحق الدفاع عن النفس فأعليت سيادة القانون ٠٠ واغفروا لي ان كان قد دفعني بعض الأبناء

---

(١) عبد الرحمن الشرقاوي ، مقال بعنوان « كفى ! » ـ الأهرام ١٩٨٣/٤/٢٧

(٢) د٠ أسامة عبد العزيز ، مقال « سقطة الحريف » ـ الأخبار١٩٨٣/٤/٢٦

الى ما لا يمكن أن يحبه ويرضاه أب لكل الأبناء »(٣) ٠

نماذج ثلاثة لم أخترها لكى أناقش أصحابها أو أرد عليهم ، بل لكى يفتح القارىء عينيه ، من خلالها ، على الانهيـــــار الفكرى الذى تولده عهوذ الانفراد بالسلطة والرأى الواحـــــد ٠ فما هى العيوب الفكرية التى تكشف عنها هذه النماذج ؟

أولا : حين يتحدث النموذج الأول عمن يكتبون بلا وفاء ، فانه يسقط الاعتبارات الأخلاقية الشخصية على التقييم السياسى ، وكأن المؤرخ ملزم ، من أجل الوفاء للحاكم اذا كان قد أسدى اليه خدمات معينة ، بأن يغمض عينيه عن عيوب هذا الحاكم ويغش جمهـــوره عندما يصدر حكمـــا عليه ٠ ثم يزداد الخلط والتشـــويش (الذى لا أظنه كله متعمدا ، بل هو يعبر عن الطريقة التى أصبح يفكر بها الكاتب نفسه) حين يتحدث عن « سمعة الوطن » ، واهدار الحرمات ، والتشهير بالرجال والنســـاء ٠ ويصل الضباب الفـكرى الى ذروته عندما يستخدم الكاتب تعبيرات انشائيه لا مجال لها على الاطلاق فى السياق الذى يتناوله ، وكل ما تؤدى اليه هو ايجاد جو من التعاطف مع « الضحية » ، أو جو من النفور من « المعتدى » ، مثل « العدوان على سمعة الذين هم فى ذمة التاريخ » أو « تمزيق الأشلاء » ٠ هكذا أصبح للتاريخ « ذمة » ، وهذه الذمة تحمى الحـــاكم من أى نقد ، وتجعل من يمس الحكام اللاجئين اليها « ممزقا للأشلاء » !

ثانيا : أما النموذج الثانى فأمره أغرب ٠ انه يؤكد ببســاطة شديدة ان السادات ، حين أعلن عداءه للشيوعية ، انما اتخذ موقف الصدق مع شعبه واستجاب لمطلبه ٠ وهكذا يقرر الطبيب المرموق ان مطلب الشعب المصرى ليس المعيشة الآدمية ولا المواصلات السهلة ولا المسكن المعقول ولا الخبز الضرورى ، وانما هو العداء للشيوعية٠ ولا يخجل الكاتب من أن ينسب اللوعة والحزن إلى المصريين جميعـا فى تلك الجنازة التى شهد الأمريكان أنفسهم بأنها قوبلت من الشعب بعدم اكتراث كامل ٠ وأخيرا ، فان الكاتب ينظر الى الحاكم على انه

---

(٣) مقال بعنوان « معهم كل الحق ٠٠ نشاتى عقدتنى » ، ١٠ مايو ١٩٨٣ ٠

ولى النعم ، ويصل به تقديس الفرد ، واحتقار الجماهير ، الى حد القول انه هو الذى يمد يديه بالخير ، وهو الذى يفتح أبواب الحرية ، وهو الذى يسمح للناس بالتعبير - ويرى هذا كله وضعا طبيعيا يدافع عنه بحرارة • وفى مقابل ذلك فان المعارضين الجاحدين لا يردون على هذا الخير الذى يتصدق عليهم الحاكم به الا بالشر والقذف •

ان مستوى الوعى السياسى هو الذى يهم فى الموضوع كله • فها هو ذا انسان لابد انه سافر مرارا الى الخارج ، وقرأ ذلك الكم الرهيب من « الشر والقذف » الذى تحتشد به صحف حزب العمال ضد ثاتشر أو صحف الديجوليين ضد ميتران ، ورأى نماذج لا حصر لها للمعارضة القاسية الضارية ، التى تتقبلها الحكومات بكل ترحيب ، ومع ذلك فهو لا يقبل لبلده الا أسوأ نموذج : ذلك الذى يكون فيه الحاكم مانحا للخير ، والمعارض الناقد معتديا أثيما •

أنقول انها عقلية عصر الانفتاح ، منعكسة على ضمائر أقطاب العهد ؟ أنقول ان الطبيب الكبير يدافع عن عهد يتيح له أن يتقاضى عن المريض الواحد ، فى كشف يستغرق دقائق قليلة ، مقدار ما يتقاضاه خريج الجامعة الحديث ، اذا عين موظفا حكوميا ، ليعيش به فى شهر كامل ؟ لست أدرى ، وكل ما أعرفه هو انها محنة فكرية ، قبل أن تكون أزمة فى الضمائر •

ثالثا : وأخيرا ، فان النموذج الثالث ، الذى يقدم الينا حديثا متخيلا بلسان السادات ، يكرر بلا مواربة أفكار النموذج الثانى عن الحاكم من حيث هو « ولى النعم » ، ويقدم مجموعة غريبة من الأحكام لا تصدر الا عن شخص يفترض ان قراءه قد ألغيت عقولهم وحرموا حاسة الفهم : يؤمن بأن قارئه قد نسى تماما ان عهد السادات كان فيه أيضا زوار للفجر ، وأن كثيرا من القضايا السياسية قدمت فيه بناء على شهادة أجهزة تجسس وتصنت ، وان سيادة القانون كانت تخرق حتى على مستوى أعضاء مجلس الشعب ، ولكنه يستدرك بعد ذلك فيستخدم لغة « الآباء والأبناء » فى وصف حركة اعتقالات

سبتمبر ١٩٨١ ، ويصور المسألة كما لو كان الأب الحنون ، كبير الأسرة الواحدة ، قد اضطر متألما الى أن يكون صارما مع بعض أبنائه من أجل صالحهم ٠

ان جرأة الاعلام على التزييف والمغالطة ، حين تصل الى هذا الحد ، فلابد أن يكون في الأمر كله خطأ فادح ٠ صحيح أن الاعلام في العالم كله يبالغ ، ويخرج عن الحقائق هنا وهناك ، غير أن ثمة حدا أدنى من الاحترام لعقول الناس ــ ولكن هذا الحد الأدنى لا أثر له ، للأسف ، في اعلام عهود الحكم الفردى المطلق ، ومن ثم فان الكاتب يستبيح لنفسه أن يلوى الحقائق كما يشاء ، ما دام يؤمن بأن عقول الناس قد ألغيت منذ أمد بعيد ٠

ومع هذا كله ، فان هناك ما هو أفدح وأخطر ، وأعنى به الحديث المتكرر عن « نبش القبور » ، والسؤال الذى أصبح التفكير السياسي القاصر في هذه الأيام ، يطرحه كما لو كان قضية بالغة الأهمية ، وأعني به : هل ينبغي أن ينقد الحاكم حيا أم ميتا ؟

لقد رأينا في النماذج الثلاثة السابقة اشارات متكررة الى استنكار الهجوم على الحاكم بعد موته ، ولكن لابد لنا أن نقدم نماذج أخرى لهذا الاستنكار ، حتى يدرك القارىء مدى انتشار هذا اللون من التفكير ٠ فالكاتب موسى صبرى ، وهو من أكبر الدعاة الساداتيين ، يتحدث حديثا طويلا عن « حرمة الموت والموتى » ، وعن « نبش القبور » و « انتهاك الحرمات »(٤) ٠ ولكن الأخطر من ذلك بيان نقابة الصحفيين في مصر تعقيبا على كتاب هيكل : « ان ما نشر يعد ٠٠ اعتداء على حرمة الموتى وتعرضا لحياتهم الخاصة ومخالفا لتقاليد المجتمع الدينية والأخلاقية » ٠

ولقد استنكر هيكل ــ وكان على حق فى ذلك ــ استخدام رهبة الموت وقدسيته من أجل تبرئة الحكام وابعادهم عن النقد ،

---

(٤) الأخبار فى ١٩/٤/١٩٨٣

فقال : « ومع ذلك فمن المصريين من يطالب بمصادرة حقنا في أن نناقشه ، هل من المعقول أن يأتي كل حاكم ويفعل ما يشاء ثم يذهب فلا نناقشه في حياته ، ولا نناقشه بعد مماته ؟ أهذا معقول ؟ »(٥) هذا كلام رائع بغير شك : فكل من يستنكرون مهاجمة الحكام بعد موتهم انما يهدفون ، في حقيقة الأمر ، الى مصادرة حق الناس في توجيه أي نقد الى الحاكم ، سواء خلال حياته أو بعد مماته . ذلك لأنهم هم أنفسهم الذين يشاركون في قمع حريات المعارضين والتنكيل بهم واتهامهم بالعمالة والخيانة لو انتقدوا الحاكم حيا ، وهم الذين يتمسحون بالفضيلة والأخلاق وتقاليد المجتمع والدين لو وجدوا من يهاجم الحاكم ميتا . وهكذا فالنقد أثناء الحياة ممنوع ، وبعد الموت عيب وحرام . فهل هذا - كما قال هيكل بالضبط - معقول ؟

ولكن المهزلة الكبرى تتمثل في أن هيكل نفسه ، الذي يتلفت الآن حواليه ببراءة ويتساءل : أهذا معقول ؟ كان هو نفسه من أهم من استخدموا هذه الحجة المتهافتة ، وكان من أقوى الناس نقدا لمن يهاجمون الحكام بعد موتهم . وهكذا نجد أنفسنا ازاء « لامعقول » آخر ، غير ذلك الذي يمثله خصوم هيكل ، هو « لامعقول » هيكل نفسه .

فلنبدأ بتأمل رأي [illegible] العهد لهيكل . لقد نشرت الصحف [illegible] المتبادلتين بين توفيق الحكيم وهيكل .

فماذا نجد في هاتين الرسالتين بشأن الموضوع الذي نتحدث عنه الآن ؟ قال توفيق الحكيم مخاطبا هيكل : « ان حالتي تشبه حالتك . فأنت كتبت كتابا « خريف الغضب » اعتبر هجوما ضد السادات بعد موته . وأنا كتبت كتابا هو « عودة الوعي » اعتبر هجوما على عبد الناصر بعد موته » . ولكن هيكل يرفض هذا التشبيه بين الكتابين ، ويهمنا في رفضه السبب الثاني الذي قدمه للاختلاف بينهما : « لم أكتب بعد موت أحد . كتبت في حياته رأيي ، وكتبت

(٥) حديث هيكل مع صلاح عيسى في « الأهالي » ٢٧/٤/١٩٨٢

بعد موته نتائج دراستي لما حدث » وهو يؤكد في موضع آخر ان الحكيم ألف كتابه « بعد ثلاث سنوات من رحيل عبد الناصر » على حين انه هو ذاته نقد السادات منذ فبراير ١٩٧٤ ٠

علام يدل هذا الحرص على نفي فكرة نقد الحاكم بعد موته ؟ على شيء واحد ، هو أن هيكل يقف على نفس الأرض التي يقف عليها خصومه ، ويفكر بنفس منطقهم ، ويتبنى نفس قيمهم ٠ فالمعنى الضمني لديه هو أن نقد الحاكم بعد موته جبن ، أو عمل غير أخلاقي ٠ ومن هنا كان حرصه على تأكيد أنه نقد السادات حيا ، ولم ينتظر ثلاث سنوات كما فعل توفيق الحكيم ، وكل ما فعله بعد موت السادات هو انه « كتب نتائج دراسته لما حدث » ٠

ولكن ، لنترك المعاني المفهومة ضمنا وننتقل الى الكلام الصريح ٠ فقد نشر هيكل مقالا بجريدة « الوطن » الكويتية(٦) بعنوان : « ما أكثر الشجاعة هذه الأيام على الغائبين » — وهو في ذاته عنوان بالغ الدلالة ، يتهم فيه هيكل من ينقدون الأموات بالجبن لأنهم لم يمارسوا « شجاعتهم » الا على الغائبين ٠ في هذا المقال يروي لنا هيكل قصة عتابه لعبد الناصر على قيامه باعتقال شخصية من الشخصيات المرتبطة بصحيفة « الأهرام » ، ثم يعلق قائلا : « لا أسمح لنفسي أن أقص عليك ما قلته له ٠ ذلك الآن تجاوز لا يليق ٠ لو كان حيا واقتضت الظروف أن أروي الحديث كله لرويته ٠ ولكنه لم يعد بيننا ٠ ولهذا لا أستبيح لنفسي أن أدعي الشجاعة على غائب ٠ ما أكثر الشجاعة هذه الأيام على الغائبين ٠ الفئران كلها تعربد في غياب القطط ، ولم يكن جمال عبد الناصر قطا ، وانما كان أسدا مهيبا وشامخا » ٠

وهكذا يصف هيكل توجيه النقد للحكام بعد موتهم بأنه عربدة فئران في غياب القطط ، ولا يدري أنه بعد أعوام قلائل من حديثه ذاك ، سيجد بدوره من يشبهه بنفس التشبيه ، بعد أن مارس هو أيضا شجاعته على حاكم غائب ٠ والمفارقة الساخرة أن .

---

(٦) ٣ أكتوبر ١٩٧٩ ٠

قائل هذا الكلام هو نفسه الذى يهتف في أيامنا هذه باستنكار : هل من المعقول أن يفعل الحاكم ما يشاء فلا نناقشه في حياته ، ولا نناقشه بعد مماته ؟

وهكذا فانه ، عنـــدما كان الأمر متعلقا بنقـــد تصرفات لعبد الناصر ، وجد هيكل في مهاجمة الأموات جبنا ، وعندما أصبح متعلقا بالهجوم على السادات ، استنكر عدم مناقشة الحاكم بعـــد مماته (ولاحظ انه استخدم في هذه الحالة الأخيرة عبـــارة « كل حاكم » اى أنه كان يصدر حكما منطبقا على جميع الحالات) • هذا التناقص يدل على أن هيكل وخصـــومه يقفون جميعـا على أرض واحدة ، ويؤمنون بمجموعة واحدة من الأفكار الباطلة ، التى ترتكز على نزعة أخلاقية زائفة تخاطب عواطف الناس لا عقولهم ، وتخلط بين الموت من حيث هـــو كارثة انسانية شخصية ، وبين التقييم السياسى من حيث هو ممارسة لا صلة لها بالموتى أو الأحياء •

ان الجميع فى الوهم والضحالة الفكرية سواء ، والكل نشأوا في مناخ سياسى لا يســـمح بالموضوعية ولا يترك مجالا للنقـاش المنطقي المجرد عن الأهواء • فالساداتيون يقولون : لقد نبشتم قبر السادات • وهنـــا يرد النـاصرى : وأين كنتم عندما نبش قبر عبد النـــاصر ؟ أنتم فئران ! ولكنه حين ينبش هـــو نفسه قبر السادات ، ويهاجمه خصومه لهـــذا السبب ، يتساءل فى براءة : هل من المعقول أن يمنعونا عن نقد « كل حاكم » حيا أو ميتا ؟

انها أرجوحة شيطانية ، يتراقص فيهـــا الجميع سكارى بخمر الأفكار الزائفة والقيم المضللة ، ويثبتون بهـــا ، على نحو قاطع ، طفولية الفكر السياسى بين جميع أطراف اللعبة بعد ثلاثين عاما من ثورة أعلنت أن هدفها تحرير الفكر وتصحيح مسار القيم •

تظل هناك ، بعد ذلك ، نقطة واحدة يمكن أن يلجأ اليهـــا هيكل فى دفاعه ، وهى أن نقده للسادات بدأ أثناء حياته • هـــذا صحيح ، ولـــكن ليقل لى الأستاذ هيكل « بصراحـــة » : لو كان السادات لا يزال حيا ، أكان يستطيع أن يتكلم عن « ست البرين»

وعن « المجعراتي المتسول » وكأس الفودكا الذى يؤخذ بعد كل غداء ؟ ليجب ، بصراحة ، أيضا ، عن هذا السؤال : ما دام هو نفسه صاحب منطق القطط والفئران ، فأين يضع نفسه ، فى هذه النقطة بالذات ، بين هاتين الفئتين ؟

ان المسألة كلها خطأ مركب • فالكلام عن الأحياء والأموات . والتفرقة بينهم في النقد ، أمر لا معنى له فى ظل أى وعى سياسى سليم ، ومبدأ « اذكروا محاسن موتاكم » ينطبق على الأقارب أو الجيران أو الشركاء . ولكنه خارج عن مجال الكتابة التاريخية والسياسية • ولو صح هذا المبدأ فى تلك الميادين الأخيرة ، لما استطعنا كتابة التاريخ ، ولكان الموت هو شهادة البراءة لكل حاكم ظالم أو فاسق أو طاغية ، ولأصبح كل مؤرخ ، بحكم مهنته ذاتها ، نباشا للقبور • ولكن الناس الذين اعتادوا على مدى سنوات طويلة ، أن يحصروا تفكيرهم في شخص الحاكم ، والذين عجزوا عن أن يتصوروا أية حقيقة تتجاوزه ، هم الذين يصبغون السياسة بهذه الصبغة الشخصية ، ويحكمون على تصرفات الحكام مثلما يحكمون على سلوك « كبار العائلة » ، وينسون المسئوليات الخاصة « لرجل الدولة » ، التى تحتم علينا أن نحاسبه على كل شيء ، وفى أى وقت نشاء •

هذا الذى قلناه ينطبق على الموضوع كله ، من حيث المبدأ ، وفى ظل أى نظام ، حتى النظام الديمقراطى • أما النظام الدكتاتورى ـ الذى تدور فى ظله كل مناقشات هيكل وخصومه ـ ففيه يصبح الموقف أوضح • فالنظام الدكتاتورى لا يسمح بمناقشة الحاكم « الا » بعد وفاته • ومادام النظام الدكتاتورى تحكمه أسود مهيبة وشامخة ، فمن الطبيعى أن يكون هناك على الطرف الآخر ، فئران ـ والا فعلى أى شيء يستأسد الأسود ؟

ان الناقد الذى يهاجم أى حاكم فردى مطلق بعد مماته ، انما يتصرف تصرفا طبيعيا لا مفر منه • ولو قيل له : انك خائف ، لكان رده : نعم ، اننى لم أتكلم الا الآن لأننى كنت خائفا ، ولى كل

الحق في أن أخاف • وحتى لو ادعى هيكل الشجاعة فاكد انه انتقد السادات في حياته ، فان هذه ليست قاعدة يمكن أن تسرى على الجميع • فهيكل قد استطاع أن يختلف مع السادات في سنواته الأخيرة علنا لأنه هيكل ، بكل ما يحمله من نفوذ وما لديه من اتصالات عالمية وما يحتفظ به من أسرار تبعث الرعب في قلوب أقوى الأقوياء ـ وهذه كلها امكانات لا تتوافر لأى كاتب آخر ، حتى لو كان في منزلة توفيق الحكيم• ومع كل ذلك فان هيكل عندما هاجم الحاكم الفرد في حياته لم يكن يمسه الا مسا رقيقا ، واضطر ـ بكل سلطته ونفوذه وامكاناته ـ أن ينتظر حتى يموت لكى يغوص في الأعماق •

ان القضية كلها ـ أعنى الكتابة عن الحكام أحياء أم أمواتا ـ هى فى رأينا قضية ما كان ينبغي أن تثار ، وليس الاهتمام المفرط الذى أبداه أطراف النزاع بها الا دليلا على قصور شديد فى الوعى السياسى لدى الجميع • والمسألة ببساطة استغلال لعاطفية الجماهير واستغفال لعقولها من أجل الحيلولة دون نقد الحاكم حين لا يعود الناس خائفين ، بعد أن كان نقده ممنوعا عندما كانوا خائفين • والخطأ الحقيقى الذى ارتكبه هيكل ، لا يكمن فى أنه انتظر حتى يموت السادات ثم فجر قنابل المعلومات على قبره ـ اذ أن الدكتاتور لا يمكن نقده الا بهذه الطريقة • وانما يكمن خطأ هيكل فى أنه لم يكن يدرك هذه الحقيقة طوال الوقت ، بل عاش الجانب الأكبر من حياته واقعا فى وهم « القطط والفئران » والشجاعة على الحاضرين والجبن على الغائبين •

الفصل الرابع

ظروف العائلة أم اختيار مقصود

تظل ردود الفعل على كتاب هيكل مصدرا مفيدا غاية الفائدة لتحليل أساليب التفكير المشوهة التى أصبحت سائدة فى عالمنا العربى بعد سنوات طويلة من القمع • وتتعمق دلالة هذا التشويه حين ندرك ان الكاتب الذى أثار ردود الفعل هذه ، لم يسلم هو ذاته ، فى كثير من الأحيان ، من الوقوع فى أخطاء نقاده نفسها ، بحيث يشعر المرء بأن المسألة فى حقيقتها لا ينبغى أن تناقش على مستوى أطراف النزاع ، ولا ينبغى أن تنحصر فى البحث عن المصيب والمخطىء بين هذه الأطراف ، وانما المشكلة الحقيقية تكمن فى ذلك الجو الفكرى المزيف الذى طغى تأثيره على الجميع ولم يسلم منه أى طرف •

كان هيكل ، بغير شك ، مبالغا فى حديثه عن العوامل الفردية والعائلية التى تحكمت فى نشأة أنور السادات ، وصبغت شخصيته فيما بعد بصبغتها المميزة • صحيح انه ، حين يكون الحكم فرديا مطلقا ، تلعب شخصية الحاكم وأهواؤه ، وربما نزواته ، دورا لا يستهان به ، يمكن أن ينعكس حتى على قراراته المصيرية • ولكن المشكلة هى ان العوامل الشخصية تقبل أشد التفسيرات تنوعا : فالابن الذى يضطهده أبوه أو يسىء معاملته ، مثلا ، يمكن

أن يتحول الى انســـان منحرف يضطهد الآخرين عنـدما يكبر ، ويكون انحرافه هذا رد فعل على نشأته الأولى • ولكنه يمكن أيضا أن يكون انسانا حنونا عطــوفا على الآخرين ، لا يريد لهم نفس المحنة التى مر هو ذاته بها ، ويكون هذا أيضا رد فعل على نشأته الأولى ـ وهكذا فان الحديث عن العقد النفسية للطفولة وتأثيرها فى الانسان البالغ ، هو دائما حديث محفوف بالمخاطر ، يقبل أشـــد التأويلات تناقضا •

خذ مثلا فكرة الأصل المتواضع ، والحياة الصعبة التى كانت تحياها أسرة السادات • هذا شىء يقبل تفسيرات شديدة التنوع• فكم من زعيم أسدى لشعبه أعظم الخدمات ، وكان أصله المتواضع هو الحافز له على أن يفنى حياته من أجل الشعب الذى يشعر دائما بانتمائه اليه • واذا كان السادات قد أغرق نفســـه فى البذخ ، بصورة مبتذلة ، فى حياته المتأخرة ، فان هـــذا اختيار واع من جانبه ، وانتماء وانحياز منه الى طبقة محددة ، وليس مجرد عقدة نفسية عبرت عن نفسها بصورة عكسية • فلماذا لم تؤد عقـــدة الفقر بهوشى منه أو لومومبـــا مثلا الى اختيار حياة القصـــور والاستراحات ؟ ألم يكن جمال عبد الناصر نفسه فقيرا(١) ؟ بل ان مثل هذا التفسير يمكن أن يستخدم ضد هيكل نفسه ، وقد أشار موسى صبرى بوضوح مقزز الى أصـــول هيكل العائلية ولمح الى ما يسميه : خوفه من اظهار أبيه فى الأماكن العامة ، بل ان كاتبا قدم عملا روائيا ومسرحيا مشهورا تضمن اشارات مماثلة تتعلق بشخصية من شخصيات الرواية رأى كثير من النقاد انها ربمـــا كانت تعبيرا عن شخصية هيكل نفسه(٢) •

---

(١) يلاحظ أن بعض ضحايا التأميمات ، فى عهد عبد النـــاصر ، قد فسروا اجراءات التأميم والمصادرة تفسيرا يوازى تفسير هيكل لسلوك السادات ، فذكروا انها تعبير عن حقد عبد الناصر على طبقة الأغنياء وحسده لها بسبب أصوله الفقيرة ـ وهكذا يؤدى السبب الواحد الى نتيجتين متناقضتين •

(٢) انظر : الرجل الذى فقد ظله لفتحى غانم •

هذه أمثلة لا أذكرها الا لكى أنقدها وأبين أنها مبنية على فهم باطل من أساسه لعملية تفسير مسلك رجل الدولة · ومع ذلك فقد تورط هيكل فيها ، خلال فصوله الأولى ، أكثر مما ينبغى · ولا شك أن نوعية الجمهور الذى وجه اليه الكتاب أصلا ، وهو الجمهور الأمريكى ، كانت مسئولة الى حد بعيد عن هذا التورط · فالأمريكيون مصابون بهوس العقد النفسية والتفسيرات السيكولوجية الرخيصة ، وهم ينفقون على العلاج النفسى ما يغطى ميزانيات عدة دول من العالم الثالث ، دون أن يجنوا من ذلك الا مزيدا من السلوك غير السوى · وهكذا خاطب هيكل جمهوره الأمريكى باللغة التى تروق له ، ولكنها للأسف لغة لا تفسر شيئا ، بل تزيد الأمور تعقيدا ·

خذ مثلا مشكلة اللون · لقد كان هيكل ـ للانصاف ـ واضحا فى هذه المسألة ، فأكد ان السادات كان معقدا من لونه « بلا داع » · وفى كل مرة كان يكرر انه لم يكن هناك ما يدعو الى هذا التعقيد اللونى · ولكن مجرد الاشارة الى اللون كانت كفيلة باثارة ردود فعل غاضبة لدى كثير من الناس · وكان من أطرف ردود الفعل هذه ما كتبه مستشار سودانى احتج بشدة على ما ذكره هيكل عن عقدة اللون عند السادات ، مؤكدا ان هذا ليس رأى الشعب المصرى فى الشعب السودانى ، الذى يحبه المصريون ويفخرون به ، وذاهبا الى أن هذه اساءة الى الشعب السودانى تعرقل مسيرة التكامل بين البلدين « فى ظل قيادة الرئيس نميرى » · ورأى المستشار فيما قاله هيكل تفرقة عنصرية ، ومؤامرة مشتركة مع القذافى لعرقلة التكامل بين الشعبين · ولم ينس المستشار أن يشير الى أسماء عدد من الشخصيات المصرية المشهورة التى كانت من أب سودانى أو أم سودانية ، كمحمد نجيب وعبد الله النجومى وعلى عبد اللطيف ، ولم يمنعهم ذلك من دخول التاريخ(٣) · هذا رد فعل مبالغ فيه بغير شك ، وربما كان

---

(٣) المستشار احمد الشريف (سودانى) : مقال بعنوان « متى كانت الجنسية السودانية سبة ؟ » (الأخبار فى ١٩٨٣/٤/٢٦) ·

طائشا ، نتج عن فهم قاصر لاشارة هيكل الى لون السادات ، ولكن الموضوع بأكمله ما كان ينبغي أن يثار ، لأن أخطاء الحكام ، وخاصة حين تكون فادحة ، أعقد من أن تفسر بمثل هذه العوامل •

ولكن لنتوقف وقفة أطول عند صفة أخرى أكدهـا هيكل بالحاح ، وأثارت ضده موجة من ردود الفعل العنيفة ، وأعنى بها نشأة السادات الفقيرة ، التى أدت ، وفقا لتفسيرات هيكل النفسية ، الى رد فعل في الاتجاه العكسى لدى السادات عندما أتيحت له فرص الاثراء • ولما كان هدفنا الدائم هو التوصل الى أنماط الفكر التى أصبحت سائدة فى أيامنا هذه ، والتى تشهد على الانهيار العقلى المميز لعهود القهر والكبت ، فسوف نبدأ بضرب أمثلة لردود الفعل التى لا يكاد يتصورها العقل ، على ما قاله هيكل عن فقر السادات في حداثته : فالكاتب الذى اقتبسنا عنه من قبل ، والذى تحدث بلسان السادات ، ردا على هيكل ، دون أن يذكر اسمه ، يقول : « صدقوا فيما يقولون • نشأتى عقدتنى • ذقت الفقر وقسوته فحاولت أن أجنب غيرى تذوق مرارته • تملكتنى عقدة الرخاء ، وكانت أغلى أمانى أن يوفقنى الله الى حماية من عنده لكل مصرى ومصرية من مواجهة لا ترحم مع شيخوخة أو عجز أو عوز ، وأن يقدرنى على طلب الطعام من الصحاري لكل فم ، وحق العلاج والدواء لكل عليل ، وتوفير البيت لكل عروس ، ويشهد الله والشعب الوفى الذى لا ينسى اننى سعيت وحاولت قدر طاقتى » •

ويستنكر زعيم يمنى سابق على هيكل أنه يعير السادات بفقره ، فيذكر القراء بأن الله قد اختار أنبياءه من الفقراء وقال لرسوله : فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث • ثم يعلق الزعيم السابق المشهور قائلا : « ولم نسمع أن السادات قهر يتيما ، ولا نهر سائلا ، وكان بنعمة ربه يحدث »(٤) •

---

(٤) انظر مقال الدكتور عبد الرحمن البيضانى فى الأهرام ، ١٩٨٣/٤/٢٤

والنموذج الثالث شهادة سريعة لموسى صبرى ، يكرر فيهـا قصة عن السادات الذى أصر على أن يقرأ بنفسه شكوى رجل فقير بعد أن حاول سكرتيره الخاص أن يعالج الموضوع دون تدخـل من الرئيس ، ثم قال السادات لهذا السـكرتير : « أنت يافوزى لم تعان الفقر كما عانيته »(٥) ٠

هذه الأمثلة تكفى للدلالة على التدهور الخلقى والفكرى الذى يمكن أن يصل اليه الاعلام فى ظـل القمـع ٠ فكاتب العبـارة الأولى ، على سبيل المثال ، لا يخجل من الحديث عن رحمة الرئيس بالفقراء ، ويتوهم أن الوعى لدى الجماهير قد انعدم الى حد نسيان مجموعة المليونيرات التى أحاطت بالرئيس السـابق وصاهرته ، وتلك التى أعطيت لهـا كل الفرص لنهب أموال الشعب فى ظل الانفتاح ٠ ولا يتورع الكاتب عن الحديث عن شقة لكل عروس فى الوقت الذى تشهد به تجربة الناس اليومية أن أسـعار المساكن الخيالية وصلت الى أرقام لم تعد تقدر عليها الا عروس واحدة بين كل ألف عروس ٠ وهو لا يستحى من الحديث عن الطعام لكل فم وسط الغلاء الطاحن ، ولا عن الدواء لكل مريض وسط الاهمـال الكاسح لعلاج الشعب والارتفاع الصاروخى لأسعار العلاج الخاص٠ فماذا يمكن أن يقول العقل والمنطق حين تصل الصفاقة بالاعلام الى هذا الحد ؟

ان من العبث أن يسترسل المرء فى مناقشة هذه الشـهادات الفجة ، التى لا ترتكز الا على مغالطات مفضوحة ، وما استشهدنا بها هاهنا الا لكى نقدم نماذج للمستوى الذى أصبحت تناقش به أمور المجتمع المصرية فى الوقت الراهن ٠ ولـكن الأهم من ذلك هو أن نتساءل : هـل يكفى التعليل الذى قدمه هيكل ، والذى يرتكز على فكرة عقدة الفقر ، لكى يفسر البذخ المفرط الذى تميزت به حياة السادات ، وحياة المحيطين به من أقارب وأصـحاب ؟ ان عقدة الفقر ، كما قلنا ، يمكن أن تتجه اتجاها عكسيا ، فتولد لدى

---

(٥) مقالة موسى صبرى فى الأخبار ، ١٩٨٣/٤/١٩

الحاكم تعاطفا حقيقيا مع الفقراء ، وسعيا جادا الى استئصال الأسباب المؤدية اليه ، فلماذا اذن كان الاتجاه ، في حالة السادات ، الى التمتع المفرط بنعم الحياة ، والاندماج التام بأكبر أثرياء المجتمع ؟

في رأيي أن المسألة اختيار واع ومقصود لنمط معين من انماط الحياة ، ولفئة معينة في المجتمع هي الأقدر على اشباع احتياجات نمط الحياة المطلوب • فالتفسير هنا اجتماعي واقتصادي قبل أن يكون نفسيا •

والدليل على صحة الرأى الذى نقدمه هو ان السادات حارب فكرة الفقر ذاتها ، بطريقة متعمدة ، أملا في الغائها من القاموس ، وبذل جهودا واعية لاقامة « فلسفة » خاصة به ، لا مكان فيها لمفهوم الفقر ، وبذلك تكتمل عملية تغييب الوعي لدى الجماهير التي تشعر بوطأة الفقر في حياتها اليومية حتى لو لم تفهم الأسباب الحقيقية المؤدية اليه • ففي معظم خطب السادات وأحاديثه كانت هناك دعوة متكررة الى الغاء الحقد ، والاستعاضة عنه بالحب والتآلف والانسجام في ظل مجتمع « الأسرة الواحدة » الذى يرعاه ويسهر عليه « كبير العائلة » • والحقد هنا ليس الا تطلع الفقراء الى نمط حياة الأغنياء • وهكذا تقوم هذه الفلسفة المتهالكة على اذابة الوعي بالفقر ، والغاء الاحساس بالفوارق الصارخة بين الطبقات ، بدلا من أن تقوم على الغاء هذه الفوارق ذاتها • ولا جدال في أن الالحاح على الناس ليل نهار كي يتخلوا عن الحقد ويحبوا بعضهم بعضا ، في اطار مجتمع يسوده كل هذا القدر من التفاوت في الثروات وفي كافة فرص الحياة ، انما هو محاولة واعية لتزييف عقول الناس بحيث تنسى واقعها الأليم ذاته ، وليس على الاطلاق مجرد رد فعل نفسي من جانب الحاكم على نشأته الفقيرة •

ولعل الدليل الأوضح من هذا كله هو موقف السادات من أحداث يناير ١٩٧٧ • فهذه الأحداث كانت « ثورة فقراء » بمعنى

الكلمة • والأمر اللافت للنظر حتما ، فى موقف السادات ازاءها ، ليس اسلوب القمع العنيف الذى اتبعه لاخمادها ، فهذا هو المسلك المنتظر من أى حاكم فى مثل موقفه • ولكن ما ينفرد به السادات هو أنه حاول أن يلغى طبيعة الحدث ذاته ، ويحذف منه عنصره الأساسى ، عنصر الفقر ، حذفا كاملا • وهكذا ظل السادات شهورا طويلة ، بعد يناير ، يوجه الى كل من يناقشه أو يحاوره سؤالا لا يتغير : انتفاضة شعبية أم انتفاضة حرامية ؟ وتبعا للاجابة عن هذا السؤال يتحدد موقف كل شخص ، ان كان مع السلطة أو ضدها ، من أنصار الانفتاح أو خصومه ، من الطبقة العليا الجديدة أم من الطبقات الدنيا • كان اطلاق اسم « الحرامية » على تلك الملايين التي خرجت فى مظاهرات تلقائية عارمة ضد رفع الأسعار ، هو فى ذاته اختيار طبقي لا تخطئه أى عين • وبغض النظر عن أن وجود كل هذا العدد الهائل من « الحرامية » (لو صحت التسمية) هو فى ذاته دليل على أن هناك خللا أساسيا فى المجتمع ، فان الشيء الذى ينطوى على دلالة عميقة هو ان الاختلاف حول الاسم كان يعكس محاولة من الحاكم لانكار وجود الفقر فى المجتمع أصلا • فالمتظاهرون لم يخرجوا لأنهم فقراء بل لأنهم « حرامية » • هذه قمة التوحد مع الطبقة الثرية التى أصبحت تحكم مصر وتنهب مواردها •• ذلك التوحد الذى يصل الى حد الغاء كلمة الفقر من القاموس ، وكأن حذف لفظ معين واحلال لفظ آخر محله سوف يستأصل الظاهرة نفسها من جذورها !

كانت تلك ، بطبيعة الحال ، واحدة من الحالات التى يقوم فيها اختيار لكلمة مخففة بالتغطية على حقيقة أليمة مريرة ، تلك الحالات التى تكتشف فيها أجهزة الاعلام سحر « الكلمة » ، فتتلاعب بها وهي واثقة من أن الكلمة المزيفة ، اذا ما تكرر استخدامها الى الحد الكافي ، تستطيع أن تغير طبيعة الظاهرة التى نتحدث عنها وتشكلها بالطريقة التى تحقق أهداف الحاكم ــ ويدخل فى هذا الاطار استخدام أجهزة الاعلام المتكررة للفظ « النكسة »

بدلا من الهزيمة الثقيلة فى يونيو ١٩٦٧ ، وحديثها الدائم عن « سيادة القانون » ، بمعنى وضع قوانين مزيفة توافق عليها الأغلبية الآلية فى المجالس النيابية ثم ضمان « السيادة » لها ، واستخدامها تعبير « تحريك الأسعار » بدلا من الغلاء الفاحش ، وهلم جرا ٠

على أن الأمر اللافت للنظر هو ذلك الافتقار العجيب الى سياسة محددة المعالم ، قابلة للتنفيذ ، لمواجهة ظاهرة الفقر فى مصر ٠ فبدلا من التصدى للظاهرة بأساليب مخططة ومدروسة ، كان الحاكم يتحدث فى كل مناسبة ، عن أمنيته الغالية ، وهى أن يكون لكل مصرى « فيلا وسيارة » خاصة به ٠ ومثل هذا الحديث ليس مجرد تخدير لحواس الناس وعقولهم فحسب ، بل هو أيضا دليل على أن فكرة المواجهة العلمية للمشكلات غير موجودة فى ذهنه أصلا : ذلك لأن بلدا كمصر لا يحتمل ببساطة ، أن يكون لكل مواطن فيه « فيلا وسيارة » ، حتى لو كان نظام الحكم فيه وطنيا مخلصا بلا أى شائبة ٠ والنظرة العلمية الى مشكلة كهذه هى التى تحدد الأهداف وفقا للامكانات الموجودة ، وتكتفى بالحد الأدنى للمعيشة الآدمية بدلا من أن تغرق الناس فى أوهام يستحيل تحقيقها ٠ ومن المؤكد أن المفارقة لابد أن تكون قاسية بين حلم « الفيلا والسيارة » ، حين يشيعه بين الناس أكبر مسئول فى الدولة ، وبين الأسعار الفلكية للمساكن الجديدة ، ووسائل المواصلات اللاانسانية التى لا تملك الأغلبية الصامتة غيرها ٠ وفى مثل هذه الحالات ، يكون التقدير الواقعى للأهداف أقدر بكثير على تهدئة مشاعر الناس وبعث الأمل فى نفوسهم من أى تعبير تخديرى حالم ٠

المهم فى الأمر أن المحاولات الواعية المتعمدة للتغطية على حقيقة الفقر الصارخة ، ولتعليل الناس بآمال زائفة ، لا يمكن أن تكون مجرد تعبير عن « عقدة فقر » متأصلة منذ النشأة الأولى ، وانما هى تعبير عن اختيار وانحياز الى جانب القلة المستغلة ضد

الأكثرية المطحونة من وطأة الاستغلال • انهـــا فلسفة متكاملة ، دبرت وخططت بعناية وبخطط مرسومة ، وليست مجرد رد فعل سيكولوجى عـــلى ظروف الفقر التى سادت خـلال فترة النشأة الأولى • ومن هنا يبدو ان الخطأ الذى ارتكبه هيكل فى هذا الجزء لا يقل فداحة عن ذلك الذى ارتكبه خصومه ممن تحمسوا للدفاع عن السادات ، سواء منهم ذلك الذى أكد ان فقر السادات جعله يسعى حثيثا لاستئصال كل مظاهر الفقر فى بلاده ، أو ذلك الذى ذرف دموع التماسيح وهو يتحدث عن معاناة رئيسه من الفقر فى حداثته ، أو ذلك الذى شهد ـ بكل أمانة واخلاص ـ بأن السادات لم يقهر يتيما ، ولم ينهر سائلا ، وكان بنعمة ربه يحدث !

ان الاهتمام الزائد بعوامل التنشئة والتربية والبيئة الأولى ، فى حياة السياسيين ، يمكن أن يؤدى الى عكس الهدف المقصـود منه • ففى حالة السادات كان من الممكن ـ كما قلنا من قبل ـ أن تفسر نشأته المتواضعة على نحو يؤكد تعاطفه مع الفقراء ، كمـــا فعلت أجهزة الاعــلام المؤيدة له بالفعل • ولو قيل ان النشـأة المتواضعة ، وليس الاختيار الأصيل ، هى التى أدت به الى ارتكاب أخطائه ، فان مثل هذا التعليل يعنى التماس شىء من العـــذر للحاكم ، لأنه سيكون عندئذ « ضحية » ظروفه العائلية القاسية ، وربما اقتنع البعض بأنه لم يكن يملك أن يفعل الا ما فعل • وهذا كله هروب من المسئولية الحقيقية : مسئولية الاختيـــار الواعى ، المخطط ، المرسوم ، الذى تخلى فيه السادات عن طبقته الأصـلية وانحاز بكل قوة الى صف أصحاب الملايين الجدد •

ومع ذلك فان هيكل يبرز هذا العامل الى حد تصوير المسألة كما لو كانت مسألة انسان مصاب بمجموعة من العقـــد النفسية التى لم يكن يستطيع التخلص من تأثيرها طوال حياته • واذا قال البعض ، دفاعا عن هيكل ، انه لم يفعل ذلك الا فى الفصول الأولى ، بينما خصص الفصول التالية للعوامل الاجتمـــاعية والاقتصادية والفكرية الموضوعية ، فان هيكل نفسه يعود فيؤكد التهمة الموجهة

اليه حين يقول في الصفحات الأخيرة من كتابه ، بعـــد أن عرض ملجمته الطويلة عن الســـادات ، وأراد أن يلخص فى النهـــاية ما انتهى اليه من نتائج : « يمكن الآن بأثر رجعي أن يقال ان غلطة السادات الكبرى تمثلت في تضحيته بالأهداف الاستراتيجية لمصر من أجل مناورات تكتيكية كان مشكوكا منذ البداية في قيمتها • ويمكن أن يقال ـ وبحق ـ أن حرب أكتـــوبر كانت فرصـــته الكبرى ، بل كانت فرصة لم تتح لحـــاكم مصرى قبله فى تاريخ مصر الحديث ، بما فى ذلك محمد علي وجمال عبد الناصر ، ولكنه ألقى بكل شيء في الهواء • وربما كانت المسئولية تقـــع على نوع الحياة التى عاشها ، أو ربما كانت تقـــع على نقص حصيلته من التعليم والعلم ، وكلها عوامل تجعل من الظلم اصدار حكم قاطع عليه » •

هنا ، وفى نهاية الـــكتاب ، يعمـــد هيكل الى اســـتخدام التعليلات الشخصية ، مثل نوع الحيـــاة التى عاشها الحاكم ، أو نقص تعليمه ، لكى يفسر بها أخطر الأحداث ـ وكأن السادات لو كان أكثر علما لتغيرت سياساته جميعا • أما المصالح والانتماءات والارتباطات ، فلا مكان لها فى تعليلات هيكل • فظروف الحاكم ، من حيث هو فرد معين نشأ فى أوضـــاع معينة ، هى التى تفسر كل شيء • وان المرء ليعجب كيف يقبل مفكر ومحلل كبير ، كان أقرب المقربين الى حكام أكبر بلد عربى خلال ربع قـــرن من الزمان على الأقل ، أن يقدم مثل هذا التعليل الجزئى الضيق لأحـــداث سياسية كبرى ، ويتجاهل عوامل أساسية مثل اختيار الحاكم أن ينتمى الى الشريحة العليا للمجتمع ويربط مصـــيره بها ، ومثل اتباعه أسلوبا للحكم غير مستند الى ارادة شعبية تعبر عن نفسها تعبيرا حرا سليما • فهل يكون من المستغرب بعد ذلك أن تكون النتيجة التى يصل اليها تحليله هى أن « من الظلم اصدار حكم قاطع عليه » ؟

وكل ما أستطيع أن أقوله من تفسير لهذا القصور الشديد فى

التحليل ، هو أن من اعتادوا الاقتراب الشديد من حكام أفراد بعيدين عن الديمقراطية ، ومن ألفوا رؤية أخطر القرارات تصدر بارادة فردية مطلقة ، لن يستطيعوا أن يخرجوا في تعليلاتهم وتفسيراتهم عن اطار الظروف الشخصية لأصحاب السلطان ·

ان المناقشة الطويلة التي قمنا بها ، على مدى هذا الفصل والفصول السابقة ، لردود الفعل على ما كتبه هيكل ، انما كانت تستهدف قبل كل شيء ، اظهار عناصر الضعف والتفكك في الجو الفكري الذي عاش في ظله هيكل وخصومه معا · فالجميع يقعون في أخطاء متشابهة ، وان كانت هذه الأخطاء مكشوفة مفضوحة في بعض الحالات ، وغير ظاهرة للعيان في حالات أخرى ·

وأبرز هذه الأخطاء هو الخلط بين العوامل الشخصية والعوامل الموضوعية في تحليل الظواهر السياسية واصدار الأحكام على تصرفات رجال الدولة · هذا الخطأ واضح كالشمس في استنكار الساداتيين لعدم الوفاء وانتهاك الحرمات ونبش القبور ، ولكنه ظاهر أيضا في تأكيدات هيكل ، في مواضع كثيرة من كتاباته ، بأن نقد الحكام بعد موتهم ليس من الشجاعة في شيء · ان المنهج الفكري واحد ، وان كان يطبق في حالة هيكل ــ كما يحدث دائما ــ بطريقة أكثر ذكاء وخفاء ·

ومن شأن اتباع هذا المنهج أن يبدو الصراع حول المسائل السياسية الكبرى كما لو كان ثأرا بين أشخاص · وهكذا يقول البعض ، تأييدا لموقف هيكل ضد مهاجميه : أين كنتم عندما كان عبد الناصر يشتم ؟ فيرد البعض الآخر ممن ينقد حملة هيكل على السادات : ولماذا هاجمت دكتاتورية السادات وسكت عن دكتاتورية عبد الناصر ؟ ويظل كل من الطرفين حريصا ، قبل كل شيء ، على ألا يوجه اللوم الى الرئيس الذي يدافع عنه ويترك الآخر ، أما القضية الأصلية ، وهي أن حق النقد ينبغي أن يكون مباحا للجميع ، وفي عهود كل الحكام ، سواء في حياتهم أو بعد

مماتهم ، فلم يدافع عنها أحد ٠

وحين تنور العواصف ضد هيكل من صحفيين كانوا زملاء له ، ثم اندمجوا في العهد الساداتي ، يعلق على ذلك بأسف قائلا : « ليس بينهم من لم أقف معه في أحلك الظروف ولم أفعل كل ما في وسعي لمساعدته ، ولولا انني لا أريد أن أمن على أحد ، لذكرتهم لك واحدا واحدا وبالاسم ورويت ما قدمته لهم »(٦) ٠

انه هنا يلخص الموقف كله : فهو يتصور انه بمثل هذه الاشارات الى الخدمات الشخصية التي أسداها يرد على نقاده ، وينسى أن القضايا المثارة أخطر بكثير من منطق الخدمات والمساعدات الفردية ، ويثبت انه لا يختلف عن مهاجميه ممن خضعوا لمنطق الحكم المطلق وعجزوا عن تفسير الظواهر العامة الا من خلال سلوك الأفراد ٠

---

(٦) حديث مع صلاح عيسى في « الأهالي » بتاريخ ١٩٨٣/٤/٢٧ ٠

الفصل الخامس

التاريخ والحقيقة الضائعة

من سمات عهود القمع الفكرى وكبت الرأى المعارض انها تنشىء أجيالا لا تعرف التاريخ الا فى صورة مشوهة . فحين تكون وجهات النظر المتباينة متاحة يستطيع العقل الناضج أن يكون صورة صحيحة عن أحداث التاريخ وتياراته ، ويصدر أحكاما سليمة على السياسات التى تحكمت فى صياغته . أما حين يسرى الحظر الكامل على وجهات النظر التى تخالف موقف السلطة الحاكمة ، فكيف نتوقع من أى جيل لم يتعرض الا لوجهة النظر هذه ، أن يفهم أحداث التاريخ ويصدر حكما صحيحا عليها ؟

وأستطيع أن أقول ان الأجيال التى تقل أعمارها عن خمسة وأربعين عاما ، وهى بالطبع تشكل الأغلبية فى العالم العربى المعاصر ، لا تعرف عن تاريخ ما قبل ثورة ١٩٥٢ سوى معلومات غير موضوعية وغير منصفة . هذا بالطبع لا يمنع من أن يكون ثمة أفراد هنا وهناك بذلوا جهودا مضنية فى القراءة والاطلاع والبحث عن الحقائق من مصادرها الأصلية ، بحيث لا يسرى عليهم هذا الحكم ، ولكن مثل هذه الجهود لا تتاح الا للقلة القليلة ، بحيث يمكن القول أن الجيل بوجه عام لم يعد يعرف ذلك التاريخ الا من خلال وجهة نظر معادية له ، ومن ثم فقد حرصت كل الحرص على

تشويهة ٠

كانت تجربة مصر مع الديمقراطية تجربة فريدة بحق ٠ فمنذ القرن التاسع عشر كانت هناك مجالس نيابية ، حاول حكام مصر فى ذلك الحين ، وهم أتراك أو انصــاف أتراك ، أن يستغلوها لحسابهم ، وجندوا بالفعل عددا من الأعوان والأذناب ، ولكن كان هناك دائما من يتصدون للقهر والطغيان ، وشهدت هذه المجالس مواقف مجيدة كان نواب الشعب فيها يدافعون عن الدستور ضد سلطة الحاكم ، ويؤكدون سيادة الشعب ويحمون حقـوقه ٠ كانت تجربة ديمقراطية مبكرة ، سبقت نظيراتها فى كثير من البـلاد الأوروبية ، وكانت شهادة بالغة الدلالة على أن الشعب يستطيع أن يجنى من الديمقراطية مكاسب هامة ، مهما كانت قوة التيارات التى تقف فى وجه تطوره ٠

ولقد كانت هذه التيارات قوية بغير شك ٠ فقد كان هنـاك القصر (الخديوى فى البدء ، ثم الملوك بعد ذلك) ، وكان هنـاك الانجليز ، وكان هنـاك أعوان يستطيع الحكام شراءهم بالوعود والمصالح ، ولم يكن الطريق بالتالى سهلا على الاطلاق ٠ ومع ذلك فقد كان الشعب يؤكد حقوقه ويدافع عن حرياته فى كل فرصـة تتاح له ٠

وحين قامت ثورة ١٩١٩ فى مصر ، لم تكن الثـورة التى عمت البلاد من أقصاها الى أقصاها ، والتى شاركت فيها الطبقات الدنيا والوسطى وكثير من شرائح الطبقة العليا ، ولم تعرف تفرقة بين مسلم وقبطى فى الكفاح من أجل الوطن — لم تكن هذه الثورة كفاحا ضد الأجنبى المحتل فحسب ، بل كانت فى الوقت ذاتـه جهادا من أجل تأكيد الديمقراطية والحقوق الدستورية للشعب ، وكان من ابرز مظاهر النضج السياسى فى ذلك الحين وجود وعى كامل بأن الكفاح من أجل الاستقلال والكفاح من أجل الديمقراطية لا ينفصلان

وخلال الفترة الواقعة بين ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، تميزت الحيـاة

السياسية بطابع الصراع العنيف ، الذى تحددت معالمه بوضوح تام ، بين تيارين : تيار رجعي يمثله القصر والانجليز وأعوانهما ، وتيار شعبي مستنير يمثله الوفد · ولم يكن الوفد حزبا متاليا ، بل كانت في داخله تيارات متعارضة ، كما كان يضم شرائح متباينة من المجتمع الى الحد الذى يجعله أقرب ما يكون الى صيغة « تحالف قوى الشعب » ، تلك الصيغة التى بذلت فيما بعد محاولات لتطبيقها فى اطار غير ديمقراطى ، فلم تلق نجاحا ·

ومع ذلك كان فى الوفد ميزتان أساسيتان : الأولى انه كان على وعى تام بأن مصدر قوته هو التأييد الشعبى الساحق ، ومن ثم فقد كان فى أوقات الازمات يقف بصلابة فى الدفاع عن الدستور وعن حقوق الشعب التى هى رصيده الأكبر · والثانية هى مرونته وقدرته على تطوير نفسه وفقا للأحداث ، مما أتاح له ان يصمد صمودا رائعا ، طوال الفترة الواقعة بين ثورتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، على الرغم من كل حملات التشويه والتشنيع التى كانت تشن ضده بانتظام · وبفضل هاتين الميزتين استطاع الوفد ان يكتسح أحزاب الأقلية ، التى خلقها القصر والانجليز لمحاربته ، فى كل انتخابات تجرى بقدر معقول من الحرية · وكان آخر انتصاراته ، وأكثرها مدعاة للدهشة فى نظر خصومه ، هو فوزه الساحق فى الانتخابات التى أجريت فى أواخر ١٩٤٩ ، بعد فترة بدا فيها لخصومه فى الداخل والخارج انهم افلحوا فى تشويه صورته عن طريق اختلاق تفسير كاذب لأحداث ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وعن طريق انشقاق مكرم عبيد ونشره « كتابا أسود » ضد الوفد ، وعن طريق انشاء دار « أخبار اليوم » الصحفية خصيصا لخدمة أهداف الملك والانجليز والتخصص فى تشويه صورة الوفد ·

اننا لا نقدم هنا استطرادا خارجا عن الموضوع ، ولا نود أن نقطع حبل الأحداث التى أثارها كتاب هيكل أو التى ظهر كرد فعل عليها ، اذ أن هذه الملاحظات تدخل فى صميم الموضوع ، وهى فى رأينا تكمن فى قلب المأساة الفكرية والسياسية التى تعانى

منها مصر والأمة العربية في الوقت الراهن · فهناك كما قلنا جيل يجهل هذه الأحداث أو لا يعرفهـــا الا من خـــلال ما كتبه عنهـــا خصومها منذ عام ١٩٥٢ · ومن حق هـــذا الجيل على من شـــهدوا هذه الفترة بوعي وفهم ان يدلوا بشهادتهم ، وسواء اقتنعوا بهذه الشهادة أم لم يقتنعوا ، فلينظروا اليهـــا على انهـــا مـــادة خـــام تساعدهم على المزيد من التحليل والتفكير ·

كانت الفترة التي تولى فيها الوفد السلطة ، بعد انتصـــاره الساحق في آخر انتخابات أجريت قبل الثورة ، وآخر انتخابات حرة في تاريخ مصر ، فترة فريدة بحق في تاريخ هذه المنطقة كلها · ومن المؤسف حقا أن أحداث عامي ١٩٥٠ و ١٩٥١ لم تنل حظها من الدراسة والتحليل ، مع أن هذه الفترة بالذات تلقى الضوء على الكثير جدا من التطورات التالية · ولن يسمح لنا المجال ها هنا ، ولا الحرص على الاحتفاظ بتسلسل المناقشة وترابطها ، بأن نتحدث بأى شيء من التفصيل عن هذه الفترة الحاسمة التى تنطوى عـــلى مفاتيح تفسر أحداثا كثيرة.وقعت فيما بعد ، ولكن حسبنا أن نشير فى عجالة الى الخطوط العريضة لأحداث هاتين السنتين الحاسمتين ، اللتين بدأتا عند استدارة القرن العشرين الى نصفه الثاني ــ وكانتا نقطة تحول أساسية بين التاريخ السابق والتاريخ اللاحق ·

فى هاتين السنتين الحاسمتين وقعت الأحداث الكبرى الآتية :

١ ــ تركت الحرية للصحافة لكى تهاجم الملك ــ أقوى سلطة فى البلد ، بارتكازه على قوتى الانجليز والجيش ــ واتخذ الهجوم فى بعض الأحيان طـــابع الفضح المباشر لتصرفـــات الملك وأسرته · وكان مما ساعد على ضمان هذه الحرية ، معركة مشهورة نشبت فى ذلك الحين حول تشريعات مقيدة للصحافة (وهى تشريعات لا تساوى شيئا اذا ما قيست بالقيود الفعلية التى أصبحت تمارس ضد حرية الصحافة بعد عام ١٩٥٢) ، واستطاع فيها الضغط الشعبى ، ممثلا فى حملة صحفيـــة رائعة ضد التشريعات الجـــديدة ، ان ينتصر فى النهاية ،

فسحبت التشريعات وتأكدت حرية الصحافة ٠

٢ ـ قامت الحكومة ، استجابة لمطالبات شعبية واسعة النطاق أيضا ، بالغاء معاهدة ١٩٣٦ مع الانجليز ، وبدأ عهد الكفاح المسلح ضد القوات البريطانية فى منطقة القناة ٠ وبقدر ما كانت حركة الكفاح المسلح ارتجالية فى البداية ، فانها كانت تحمل للدول الغربية الطامعة فى المنطقة ، وعلى رأسها القوة الامبريالية الجديدة (أمريكا) ، نذرا خطيرة الى أبعد حد : هى تكوين نواة لجيش شعبى مدرب على مكافحة الاستعمار ، وهو أكبر خطر تخشاه هذه القوى الأجنبية ، وخاصة اذا انتقلت عدواه فيما بعد الى الأقطار العربية الأخرى ٠

٣ ـ وضعت أسس راسخة لمبادىء العدالة الاجتماعية وديمقراطية الحكم ، فطبق مبدأ مجانية التعليم فى المرحلتين الابتدائية والثانوية ، واتسع نطاق القبول المجانى فى الجامعة الى حد بعيد ، وطبق طه حسين ، حين كان وزيرا للتعليم ، مبدأ « التعليم كالماء والهواء » ، وكانت تلك هى البداية الحقيقية للتحول الاجتماعى ، ليس فقط فى التعليم ، بل فى فرص العمل وادارة دفة المجتمع ٠

وهكذا كانت تلك التجربة الأخيرة لحكم الوفد هى ذروة التطور الديمقراطى الذى سارت فيه مصر طوال فترة لا تقل عن ثلاثة أرباع القرن ٠ ومن اللافت للنظر أن هذه التجربة الرائعة كانت تتم فى وجه عقبات هائلة ، ولم يكن طريقيا سهلا أو معبدا على الاطلاق ، اذ كان هناك ملك مستبد يشعر بالخطر الذى يتهدده من هذه التطورات ، ويتحين الفرص لاسقاط الحكومة التى ستؤدى سياستها حتما الى القضاء عليه ، وكان هناك احتلال بريطانى يريد أن يثبت أقدامه ويتعاون مع أعداء الحكومة الوطنية بكل الوسائل ، وكان هناك جيش يدين قادته بالولاء المطلق للقصر ٠ ومع كل هذه المعوقات تحقق الكثير ، وازداد الشعب التفافا حول

حكومته التي كانت تطور نفسها مـع مطالب الجماهير ، وكانت الأجنحة التقدمية فيها تكتسب مزيدا من الشعبية على حساب الاجنحة الأكثر محافظة · ولم يكن امام الملك ، ازاء هذا التأييد الشعبي الجارف لحكومته ، الا أن يلجأ الى التآمر من أجل ازاحة الحكم الوطني ، فكان حريق القاهرة ، أو الثورة المضادة التي اثبتت ، بعد وقت قصير ، فشلها الكامل ، وكشفت النظام الملكي في عجزه وتقلبه ووصوله الى طريق مسدود ·

لماذا ، اذن ، نتحدث عن هذه الفترة ، وما علاقتها بموضوعنا الأصلي ؟ السبب الأول هو أن هذه الفترة مجهولة لدى أبناء الجيل الأوسط والأصغر في عالمنا العربي بوجه عام ، وفي مصر بوجه خاص(١) · والكثير منهم لا يعرف عن هذا العهد الا مجموعة من القوالب اللفظية التي تكرر ترديدها على أسماعهم الى حد أنهم أصبحوا يأخذونها كما لو كانت من المسلمات المؤكدة ، كالحديث عن «الفساد» في عهد ما قبل الثورة ـ وعن « فشل التجربة الحزبية » وعن « تخبط الأحزاب وسعيها الى مصالحها الضيقة » وعن « الازمة التي انتهت اليها الديمقراطية الحزبية قبل الثورة » ، الى آخر هذه العبارات التي يعرفها الجميع ، والتي تخفي في واقع الأمر أهم معالم تلك التجربة الخصبة الى أبعد حد ·

أما السبب الثاني فهو تلك المواقف غير المنصفة التي وقفها هيكل من تلك التجربة ·

---

(١) يمكن القول ان عهد عبد الناصر بدوره أصبح تاريخا غير واضح المعالم بالنسبة الى جيل الشباب الحالي ، ممن تقل اعمارهم عن الثلاثين · ذلك لأن العهد الذي تلاه ، والذي كان بدوره حكما فرديا ، لم يتح الفرصة لهذا الجيل كيما تكون له رؤية تاريخية متوازنة لعهد عبد الناصر ، ومن هنا كان أبناء هذا الجيل اما متحمسين للعهد الناصري الى درجة الرومانتيكية غير المرتبطة بالواقع ، واما متأثرين بالدعايات المضادة التي تقدم للعهد صورة مشوهة غير واقعية ايضا · وهذا مثال آخر للتشويه الذي يلحق بالتاريخ من جراء القمع وكبت الحريات وتحريف كل عهد لتاريخ العهد السابق عليه ·

كان هيكل ، منذ بداية نضجه الصحفي ، منتسبا الى مدرسة « أخبار اليوم » في الصحافة ، وهي مدرسة لها سمات خاصة ، أهمها الولاء للقصر الملكي وتأييد أحزاب الأقلية والدعاية لكل قوة معادية لحزب الأغلبية الشعبية ، أعني الوفد • وكان قطب هذه المدرسة ومعلمها الأكبر هو « محمد التابعي » ، وهو صحفي مخضرم كان يؤمن بأهمية الاثارة الصحفية عن طريق الفضائح والجنس في اجتذاب مزيد من القراء لأية جريدة • ومن الانصاف لهيكل أن نقول ان مجرد انتمائه ، خلال فترة هامة من حياته الصحفية ، الى دار « أخبار اليوم » لا يعني بالضرورة أنه كان يتبنى جميع الأسس التي قامت عليها هذه الدار • ولكن من الانصاف للتاريخ ان نقول انه لم يبد أي نوع من التمرد الواضح عليها •

كانت هذه الدار التي أنشئت أساسا لتلطيخ سمعة الوفد (وقد أثبتت انتخابات آخر سنة ١٩٤٩ انها فشلت في ذلك فشلا ذريعا) ، هي التي مجدت مجموعة الشباب التي كان ينتمي اليها أنور السادات ، وعلى رأسها المغامر المشبوه حسين توفيق ، وهكذا كانت تروى عنهم حكايات اسطورية ، وكان الغطاء الوطني لعملياتهم هو العداء لقوات الاحتلال البريطاني ، ولكن الهدف الحقيقي منها هو تخليص القصر من أعدائه ، عن طريق التصفية الجسدية ، كما تشهد محاولات السادات المتكررة لاغتيال رمز الوطنية المصرية في ذلك الحين ، مصطفى النحاس •

ولقد تضمن « خريف الغضب » تعبيرات كثيرة تحمل في طياتها اعترافا بالدور الوطني الذي قام به الوفد ، وبالفارق الشاسع ، في هذه الناحية ، بين الوفد وأحزاب الأقلية الأخرى • فهو مثلا يتحدث عن « حزب الوفد المصري الذي يقوده مصطفى النحاس والذي كان يمثل أغلبية الوطنيين في مصر » • ويصدر حكما مثل : « أما الوفد — وبرغم كل محاولات تزوير الانتخابات — فقد ظل حزب الأغلبية ، يتمتع بتأييد شعبي لا ينازعه فيه أي حزب سياسي آخر » • كما يشير بوضوح الى المعارك الدستورية

المجيدة التى خاضها الوفد ضد القصر ، ويؤكد ان « كفاح » السادات ضد الوفد ومحاولاته اغتيال مصطفى النحاس واشتراكه فى مقتل أمين عثمان ، كل ذلك كان لصالح السراى ، وقد تحقق عن طريق علاقة السادات بالحرس الحديدى ، الذى يبدو انه كان يقوم بدور « عمالة مزدوجة » ، لصالح القصر فى الواقع ، ولصالح الوطنية المتطرفة فى الظاهر ، وكان مثل كثير من القوى شديدة التطرف ، عاملا لحساب قوى شديدة الرجعيه • بل ان هيكل يتحدث عن « صحافة القصر » (ويقصد أخبار اليوم ، حيث كان يعمل) التى راحت تصور هؤلاء الشباب على أنهم أبطال شعبيون ••• وكل هذه كلمات صحيحة كل الصحة ، ومنصفة لتاريخ مصر فى تلك الفترة •

ولكن المفارقة تظهر حين يعود هيكل فيصدر أحكاما مناقضة ، يبرر بها استيلاء الجيش على السلطة فى ١٩٥٢ ، فيقول : « فى ذلك المناخ (الأربعينات) بدت السياسات المصرية التقليدية القائمة على المناورة والتوازن بين الانجليز والقصر والوفد ـ بدت شيئا فات أوانه لأنه يفقد صلته بالحقائق الجديدة يوما بعد يوم • كان لا بد من تغيير ، ولم تكن هناك فائدة ترجى من انتظار التغيير بواسطة حزب سياسى قديم أو جديد ، فلقد كان التركيب الطبقى فى مصر لا يزال فى حالة سيولة ، الأمر الذى يمنع ظهور قاعدة اجتماعية صلبة يقوم عليها تنظيم سياسى حقيقى ويزدهر • وهكذا فانه حين جاء التغيير ، كان مصدره هو القوة الوحيدة التى تمثل ارادة الاستمرار من ناحية ، وتملك قدرة العمل من ناحية أخرى ـ الجيش » ؟

هنا يعود هيكل القديم ، هيكل الخمسينات ، الى الكلام ، على الرغم من أنه كان يكتب فى الثمانينات • فمن قال ان السياسة المصرية قبل الثورة قامت على المناورة والتوازن بين الانجليز والقصر والوفد ؟ لقد كانت تقوم ، كما تدل عبارات هيكل نفسه التى اقتبسناها من قبل ، على صراع واضح المعالم بين الشعب ، ممثلا

فى الوفد من جهة ، والقصر والانجليز وأحزاب الاقلية من جهة أخرى • كان صراعا حول قضايا متبلورة تماما ، القضية الوطنية ـ الديمقراطية ـ حكم الدستور ـ توفير المطالب الشعبية • وعلى العكس من ذلك يمكن القول ان أول ما حرصت عليه ثورة ٢٣ يوليو كان اسكات الصراع ، الذى يرمز له اعدام اثنين من العمال (خميس والبقرى) بالتهمة التقليدية (الشيوعية) فى الأيام الأولى للثورة ، ثم ظهور مختلف التنظيمات القائمة على فكرة التوازن ، لا الصراع ، وأولها هيئة التحرير •

وهكذا يتحدث هيكل حينا بطريقة تدل على أنه أدرك حقيقة القوى المتفاعلة فى تلك الفترة المظلومة من تاريخ مصر ، ولكنه سرعان ما يعود الى موقفه التقليدى ، ذلك الموقف الذى وقفته ثورة يوليو منذ البداية ، وأعنى به وضع الأحزاب جميعا فى سلة واحدة وكأنها كلها خانت وفشلت وتنكرت للحركة الوطنية ، ثم الترويج لتلك الأسطورة التى لم يكن لها أى أساس من الواقع أو التاريخ ، وأعنى بها انه « لم تكن هناك فائدة ترجى من أن يأتى التغيير من حزب سياسى » ، تلك الأسطورة التى تريد أن تسدل ستارا من النسيان على تجربة ديمقراطية عظيمة ، كانت تبشر بتطورات وتصحيحات هائلة لمسارها ، لو كتب لها البقاء بعد ازاحة العقبات التى كانت تعرقل مسيرتها حينا وتبطىء حركتها حينا آخر •

من أجل هذا يقدم هيكل تبريرات لمجموعة الاجراءات التى أدت الى القضاء على التجربة الحزبية فى مصر ، وهى اجراءات تكررت ، مع اختلاف فى التفاصيل ، فى كثير من الأقطار العربية الأخرى حين قامت فيها حركات عسكرية مماثلة • وهكذا يذهب هيكل الى أن الشرعية التقليدية فى بلاد العالم الثالث لها أساس قبلى أو دينى ، وحين تحاول أن تنتقل فى العالم الثالث الى شرعية ذات أساس دستورى وقانونى ، تستند فى عملية الانتقال هذه الى ضرورات الاستمرار ، وتمثلها « البيروقراطية » بما فيها القوات

المسلحة ، وكذلك الى شخصية الزعيم ٠

ولست أدرى على أى بلد من بلاد لعالم الثالث ينطبق هـــذا الكلام ، لأن عمليـــات الانتقـــال التى تركز على القـــوات المسلحة وعلى شخصية الزعيم لا تمثل فى أية حال من الحالات تحولا نحـــو الشرعية الدستورية والقانونية ٠ ولكن ما اعلمه حـق العلم هو أن هذا الكلام حين يقال عن مصر بالذات ، يكون عدوانا صارخا على الحقيقة والتاريخ ، فقد كانت فى مصر شرعية دستورية قائمـــة بالفعل ، وكانت تكافح ببطولة من اجل تطهير نفسها من القـــوى المعادية للدستور ٠ وليس صحيحا ان حركة الجيش ، فى مصر أو غيرها ، كانت محاولة للانتقال من شرعية تقليدية الى شرعيـــة دستورية ، بل ان العـــكس هو الصحيح : اذ كانت الحركة فى اساسها انتقالا من تجربة ناضجة فى الشرعية الدستورية الى نمط فى الحكم لا يكترث كثيرا بمعنى الشرعية ، ولا يعترف بالدستور الا على الورق ٠

وبمثل هذه الفلسفة المضللة تم تبرير كافة الاجراءات التى اتخذت فى الســـنتين الأوليين للثورة ، من أجل التضييق عـــلى الأحزاب (وكان المقصود بها واقعيا حزب الوفد وحده) ، ثم فرض شروط صعبة التحقيق عليها ، ثم الادعاء بأنها لم تتمكن من تلبية هـــذه الشروط ، ثم يتكرر المسلســـل المعتـــاد ، الذى أصبح « نموذجا » تحتذيه الانقلابات العسكرية فى كافة أرجاء العـــالم الثالث : ايقاف المســـار الطبيعى للدستور ، والغاء الأحـــزاب والانتخـــابات ، والعمـــل بموجب قرارات أو مراسيم ، مدة ثلاثة أشهر ، ثم ستة أشهر ، ثم سنوات وسنوات ٠ وفى كل حالة يجد النظام من يبرر له اجراءاته عن طريق « فلاسفة » قـــادرين على اقناع الناس ، أو ارغامهم على الاقتناع ، بأنهم يعيشون فى ظـــل شرعية من نوع جديد ، شرعية « ثورية » تتضاءل الى جانبهـــا المفاهيم « العتيقة » للشرعية ٠

هكذا فعل هيكل ، وهكذا فعل كثيرون غيره من منظرى الحكم

التسلطى اللاديمقراطى ، ولكن حساب التاريخ لهيكل سيكون أشد عسرا ، لأنه كان أكثر من الآخرين ذكاء ووعيا ، ولأنه أدرك حقائق الأوضاع في لمحات سريعة فى كتابه الأخير ، ولكنه سرعـــــان ما عاد الى طريقه المألوف ، طريق العداء للديمقراطية المرتكزة عـلى أساس شعبى والمعبرة عن الارادة الحقيقية للجماهير .

الفصل السادس

ورّثه مصر ، ونسي !

فى كتاب هيكل عن السادات نقطتان تتسمان بالضعف الشديد ، مر عليهما المؤلف بتعجل وبغير تحليل مقنع ، وانما حاول أن يقدم لهما تعليلات أدت فى الواقع الى زيادة موقفه ضعفا • هاتان النقطتان تأتيان عند بداية علاقة السادات بعبد الناصر والثورة المصرية ، وعند نهاية عهد عبد الناصر واختياره أنور السادات لخلافته • فكيف يصف هيكل هاتين اللحظتين الحاسمتين : لحظة انضمام السادات الى تنظيم الضباط الأحرار ، التى حصل فيها على جواز المرور الى تاريخ مصر ، ولحظة تعيين عبد الناصر للسادات نائبا له ، قبل وفاته بوقت قصير ، وهى اللحظة التى ضمنت له دخول هذا التاريخ من أوسع أبوابه ؟

يقول هيكل فى « خريف الغضب » : « فى أواخر سنة ١٩٥١ أصبح أنور السادات عضوا فى تنظيم الضباط الأحرار • وقد كان كل أعضاء اللجنة التأسيسية للتنظيم يعارضون انضمامه باستثناء جمال عبد الناصر • كانوا يعرفون السجل بطبيعة الحال •• وكان عبد الناصر يعرف يقينا بكل هذه الوقائع » •

ما هى هذه الوقائع التى أدت بأعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار الى رفض انضمام أنور السادات الى تنظيمهم ،

والتى أصر عبد الناصر على قبوله فى التنظيم على الرغم من معرفته اليقينية بها ، وعلى الرغم من معارضة جميع أعضاء اللجنة الآخرين لهذا القبول ؟ كانت هـــذه الوقائع ، كما شرح هيكل فى كتابه باسهاب ، تشمل : الانضمام الى الحرس الحديدى الذى كان يخدم أغراض الملك ـ السعى الى تخليص الملـــك من أقوى خصــــومه السياسيين بالتصفية الجسدية ـ الاتصال برجال القصر وعلى رأسهم « يوسف رشاد » وتلقى رشوة مقدارها ألف جنيه من هذا الأخير « لكى يؤثث بيتا ويشترى سيارة ، ويبدأ حياة جديدة » وغيرها من الوقائع المثيرة للارتياب ٠

كيف اذن أصر عبد الناصر على قبول السادات فى التنظيم ، وتحمل بذلك مخاطرة أن يوصف بالدكتاتورية لأنه رجح صوته الوحيد على أصوات جميع الأعضاء الآخرين الرافضين ؟ يقـــدم هيكل فى هذا الصدد ما يسميه « اجتهادات » يحاول بها تفسير هذا الاصرار ، وهى اجتهادات لا تفسر فى الواقع شيئا ، بل يمكن الرد عليها بسهولة تامة ٠ فمن الجائز أن عبد الناصر أراد معرفـة أخبار القصر مستغلا علاقة السادات بيوسف رشاد ٠ ولو صـح هذا التعليل لكان من الواجب أن يبعـد الســـادات عن التنظيم بمجرد نجاح الثورة واغلاق القصر وطرد صاحبه من البلاد ، فما فائدة الاحتفاظ بعميل سابق للقصر بعد أن انتهت مهمته ؟ ومـع ذلك فان السادات لم يكن أول من خـــرج من أعضـــاء مجلس الثورة ، وانما خرج الجميع وبقى هو !

وينطبق هذا الكلام نفسه على التعليل الآخـر الذى قدمـــه هيكل ، وهو تضليل القصر عن أخبار الضباط الأحرار من خـلال الصلة السابقة نفسها ٠ ففى هذه الحالة أيضا كان من الواجب أن تنتهى مهمة السادات بمجرد نجاح الثورة ٠

أما تعليل عبد الناصر نفسـه ، كما رواه لهيكل فيما بعد ، فهو « أردت أن أضع فى اطار الحركة كل هؤلاء الضباط الذين اقترن اسمهم بالعمل السياسى فى مصر » ٠ هنا أيضا نجـد أنفسنا غير

مقتنعين : هل أى ضابط اقترن اسمه بالعمل السياسى يمكن أن يقبل فى التنظيم ، حتى لو كان العمل السياسى الذى مارسه عمالة مزدوجة وخدمة لأهداف القصر ، أى بكلمة واحدة ، حتى لو كان هذا العمل السياسى « خيانة » ؟ لو افترضنا ان حاجة التنظيم فى بدايته الى عناصر نشطة وممارسة كانت هى التى أرغمت عبد الناصر على قبول شخصية مثيرة للشبهات كهذه ، فان هذه الحاجة تنتهى تماما بمجرد أن ترسخ أقدام التنظيم ويصبح هو الذى يحكم مصر بلا منازع • ويبدو أن أعضاء مجلس الثورة قد نظروا الى الأمر على هذا النحو ، بدليل قول هيكل ان هؤلاء الأعضاء ، بعد يوليه ١٩٥٢ مباشرة ، « تجددت شكوكهم فيه ، بل وبدأ معظمهم يوجه اليه فى حضوره بعض الملاحظات الجارحة ، ولكن عبد الناصر كان يحميه » •

هناك اذن سر فى موضوع دخول السادات فى تنظيم الضباط الأحرار ، واستمرار عضويته فيه بعد أن انتفت الأسباب التى يقال انها هى التى دعت الى قبوله • ولا تقدم الينا رواية هيكل أى تعليل مقنع لهذا السر ، بل انها تترك الموضوع عائما ، وتكاد توحى بأن عبد الناصر كان لديه ميل خاص ، غير مفهوم الى السادات ، على الرغم من علمه بتاريخه •

تلك اذن لحظة حاسمة فى تاريخ السادات ، وفى تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ، تركها هيكل غير مفهومة ، فهل كان هيكل يستخف بأهمية هذه اللحظة ، حين قدم تعليلاته غير المقنعة ، أم كان يخفى شيئا لا يريد أن يعلن عنه ، أم كان يستخف بقدرة القارىء على الشك والتساؤل ، أم كان ــ أخيرا ــ يؤمن بحق عبد الناصر المطلق فى أن يفعل ما يشاء بغير أسباب ؟

لنترك هذه اللحظة مؤقتا ، ولننتقل الى لحظة أخرى أهم منها بكثير ، لحظة كانت مصيرية بحق ، هى تلك التى قرر فيها عبد الناصر أن يعين السادات بالذات ، ومن دون أبناء مصر الذين كانوا عندئذ يزيدون عن الثلاثين مليونا ، ليكون نائبا لرئيس

الجمهورية ، وخليفته فى حكم مصر ٠

ونستمع ، مرة أخرى ، الى ما يقوله هيكل ٠

فى فصل بعنوان « فى ظل عبد الناصر » ، يقول هيكل :

« كان طبيعيا أنه حين تعرض عبد الناصر للنوبة القلبية الأولى فى سبتمبر ١٩٦٩ أن يضع السادات على رأس لجنة تضم بعض القريبين منه وتتولى تسيير شئون الدولة فى غيابه ٠ وعلى أى حال فان هذه اللجنة لم يقدر لها أن تباشر عمــلا حقيقيا ٠فما لبث عبد النــاصر أن نسى نوبتــه القلبية وعــاد يمــارس شواغله ومسئولياته ٠ وفى ديسمبر عــام ١٩٦٩ كان على عبد الناصر أن يشارك فى أعمال مؤتمر القمة العربى فى الرباط بالمغرب ٠٠ وعندما دعانى الى الجلوس بجانبه بعــد اقلاع الطــائرة كما كــان يفعل دائما ، فانه أشار الى بالجلوس وعلى وجهه ابتسامة ، وفوجئت به يقول : « هل تعرف ماذا فعلت اليوم ؟ » ولم أكن أعرف ٠ وقال لى : « كان أنور السادات سيمر على لــكى يصحبنى الى المطار ، وطلبت منه أن يجىء معه بمصحفــه ٠ ولم يفهم ما عنيت بهــذا الطلب ، وعندما جاء فقد جعلته يقسم اليمين ليكون نائبا لرئيس الجمهورية فى غيابى » ٠ وأبديت دهشتى وسألت عن السبب الذى دعاه الى ذلك ، ومد عبد الناصر يده الى ملف كان قد وضعه أمامه ٠٠ وكانت فيه برقية ٠٠ تقول ان هناك معلومات بأن الجنرال أوفقير يتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى محاولة لاغتيــال عبد الناصر أثناء وجوده فى المغرب ٠٠ وقد فكرت فى أنه اذا فرض وصدقت المعلومات هذه المرة وحــدث شىء ، فان أنور يصلح لسد الفترة الانتقالية ٠٠ وفى فترة الانتقال فان دور أنور سيكــون شكليا » ٠ ثم أضاف عبد الناصر : « ان الآخرين جميعا واتتهم الفرصة ليكونوا نوابا لرئيس الجمهورية الا أنــور ، ولعله دوره الآن ٠٠٠ وعلى أى حال فهى فترة أسبوع على أرجح الأحوال » ٠

وتلا ذلك حديث طويل عن شواغل عبد الناصر الكثيرة خلال الفترة التالية ، تخلله حديث آخر عن فضيحة ارتكبها أنور السادات

« وكان يمكن أن تكلفه منصبه كنائب رئيس الجمهورية ، ونغير بالتالى مجرى تاريخ مصر الحديث » ، وهي استيلاؤه بالقوة ، وعن طريق قرار جمهوري ، على قصر في الهرم كان يملكه ضابط سابق اشتغل بالأعمال الحرة • ثم حانت ساعة موت عبد الناصر • « كان السادات لا يزال حتى ذلك الوقت هو نائب الرئيس رسميا • وبكل الشواغل التي ألحت على العمل الوطنى ، من مؤتمر الرباط الى زيارة موسكو السرية الى استمرار حرب الاستنزاف الى مبادرة روجرز الى المواجهة بين الملك حسين والثورة الفلسطينية في الأردن ، فان وضع أنور السادات كنائب للرئيس كان قضية منسية حتي وان كان قد خطر للبعض ــ بمن فيهم جمال عبد الناصر نفسه ــ أن الأمر قابل لاعادة النظر فيه • وهكذا بقى أنور السادات في مكانه حتى هذه اللحظة الحزينة » •

معذرة ، أيها القارىء العزيز ، على هذا الاقتباس الطويل ، ولكن هذه اللحظة التي يصفها هيكل ، وهى اللحظة التى يجد فيها مناسبة لاستعراض مكانته (أجلسني بجانبه كما كان يفعل دائما) ، والتي تحدث فيها عبد الناصر الى هيكل بابتسامة وفاجأه بسؤاله الذى يحمل معنى الدعابة : هل تعرف ماذا فعلت اليوم ؟ هذه اللحظة هى التى قررت مصير مصر ، ومعها الأمة العربية ، حتى يومنا هذا • في هذه اللحظة بدأت المسيرة المشئومة المؤدية الى زيارة القدس ، والصلح والتطبيع ، وترك لبنان والفلسطينيين لمخالب الوحش الصهيونى ، والانفتاح ، ونهب مصر ، ووصاية البنوك الدولية والأمريكية على اقتصادها ••• هذه اللحظة التى يعرضها هيكل باستخفاف شديد ، بل وينتهز الفرصة للتفاخر بذاته وبقربه الدائم من الرئيس ، هى التى فتحت الطريق لكوارث مصر والعرب في السبعينات ، ولهذا اقتبستها من كتاب هيكل بالتفصيل •

ولكننى لم أقتبسها فقط لكى أبين التضاد المحزن بين جو الخفة والسهولة الذى كان يصفه هيكل في سطوره ، وبين شبح

المصير المأساوى الذى يطل من بين سطور هيكل ، ساخرا من القارىء ومن هيكل ، ومن عبد الناصر ، بل من الأمة العربية جمعاء ... كلا ، لم أقتبسها لغرض كهذا فقط ، وانما اقتبستها لكى أشرك معى القارىء فى محاولة طويلة لاستخلاص المعانى البشعة التى تنطوى عليها هذه السطور .

أول هذه المعانى هو البساطة العجيبة التى اتخذ بها قرار خطير كهذا ونفذ على الفور : عبد الناصر يطلب الى السادات أن يجىء معه بالمصحف أثناء مروره عليه ليصحبه الى المطار . السادات لا يعرف السبب ، ولكن المفاجأة تنتظره ، يقسم اليمين ، وبذلك يتحدد من سيكون رئيس جمهورية مصر القادم . هيكل نفسه لم يكن يعرف ، ولكن يتضح أن السبب هو تقرير عن مؤامرة محتملة فى المغرب لاغتيال عبد الناصر ، مؤامرة لم ينظر اليها عبد الناصر بجدية ، ولكن لا بأس من الاحتياط ! هكذا ، بلا استشارة حتى من أقرب المقربين ، يحدد الحاكم من سيخلفه فى حكم بلاده فى مرحلة من أحرج المراحل التى مرت بها طوال تاريخها الحديث ، ويقرر بذلك مصير أمته من بعده . لست أدرى ماذا يكون شعور القارىء حين يقرأ هذه السطور ، ولكننى أقول عن نفسى اننى شعرت بالاهانة حين وجدت مستقبلى ، ومستقبل أبنائى وبلدى ، يحدد بمثل هذا الاستخفاف ، دون أن تكون لى ، كمواطن ، كلمة ولا رأى ، ودون أن يصل صوتى عن طريق القنوات التى صاغتها تجارب طويلة للشعوب ، والتى تتيح للناس فى المجتمعات التى تحترم مواطنيها أن يختاروا من سيتحمل مسئولياتهم فى مستقبل الأيام .

ولكن لدى هيكل ، بالطبع ، اجابة جاهزة . انه يقول للقارىء : لم يكن هناك عندئذ ما يدعو الى الانزعاج ، ولا حتى الى الاهتمام ، فقد كانت المسألة مؤقتة ، لن تطول أكثر من أسبوع ، وكانت مجرد احتياط من أن تقع مؤامرة الاغتيال فى المغرب ، وكل ما فى الأمر هو أن السادات قد خدمه الحظ ، طوال

السنوات التالية ، لأن عبد الناصر وضعه على كرسي الخلافة ونسي أن يبعده عنه ــ وهو معذور في هذا النسيان ، فقد كانت الأحداث جساما ، ولم يكن لديه من الوقت ما يسمح له بأن يتذكر هذا الموضوع التافه ، موضوع تعيين السادات خليفة له في حكم مصر !

مرة أخرى ، لست أدري ، ماذا يكون شعور القارىء وهو يستمع الى حجة هيكل هذه ، ولكنني أقول عن نفسي انني شعرت باهانة أخرى ، اهانة لعقلي وتفكيري وآدميتي يوجهها الى واحد من أولئك الذين عاشوا طويلا في جو الاستخفاف بعقول الناس والاستهانة بهم ٠

فحسب أقوال هيكل نفسه ، وقع اختيار عبد الناصر على السادات لتسيير شئون الدولة مرتين ، لا مرة واحدة ٠ الأولى عند اصابته بنوبة قلبية ، والثانية عندما قرأ تقارير الأمن عن المؤامرة المغربية الأمريكية المحتملة ٠ وهذا معناه أن الاختيار لم يكن عشوائيا على الاطلاق ، بل كان متعمدا مقصودا ٠ ولا شك أن الاصابة بنوبة قلبية هي انذار كاف لأي انسان ، أي أن احتمالات النهاية لابد أن تكون قد طافت ، ولو من بعيد ، بذهن عبد الناصر ٠ وعلى ذلك فحين يختار خلفا له ، فانه يعلم أن هذا يمكن أن يكون اختيارا لمستقبل بلاده ٠ وحتى لو كانت مؤامرة المغرب مجرد اشاعة ، فانها تستدعي اختيار أصلح العناصر للخلافة ، على سبيل الاحتياط أيضا ٠

ولكن الكارثة الكبرى في الموضوع كله تكمن في نقطتين :

الأولى هي قول عبد الناصر : « ان الآخرين جميعا واتتهم الفرصة ليكونوا نوابا لرئيس الجمهورية الا أنور ، ولعله دوره الآن » ٠٠ اذن كان حكم مصر « بالدور » ٠٠ مجموعة الضباط الذين شكلوا مجلس قيادة الثورة ، يتناوبون على المنصب الخطير واحدا بعد الآخر ، وفي النهاية ، وفي لحظة مرض القلب والتهديد بالاغتيال ، بقي واحد منهم ، فلا بد اذن أن يأخذ نصيبه ــ ونصيبه

هو أن يكون خليفة لحاكم مصر .

اننى لا أشك لحظة واحدة فى ذكاء هيكل الذى كان بالفعل غير عادى . ولكن الأمر الذى يذهلنى بحق هو : كيف فات على هيكل ، بكل ذكائه ، المغزى الواضح والصارخ لهذا الكلام ؟ كيف يعجز هيكل الموهوب عن أن يدرك أنه ، بكلامه هذا ، يسىء الى عبد الناصر أبلغ اساءة ، ويهين مصر كلها اذ يصورها على أنها « عزبة » لا بد أن يتناوب على امتلاكها مجموعة الضباط هؤلاء « بالدور » ؟ فكر جيدا أيها القارئ فى المقياس الذى يتم على أساسه الاختيار : ليس الكفاءة ، التى لم يثبت السادات خلال حكم عبد الناصر ـ حسب كلام هيكل ـ شيئا منها ، وليس الوطنية ، فقد كان عبد الناصر وهيكل يعلمان أنه كان فى وقت ما عميلا مزدوجا ، وليس وجود برنامج لانقاذ الوطن لديه ، فقد كان بشهادة هيكل عاكفا على حياته الخاصة ، عزوفا عن القراءة والاطلاع وتثقيف نفسه ، وانما المقياس هو أنه الوحيد الذى لم ينل بعد نصيبه من الفطيرة .. هو أن « عليه الدور » !

أما الكارثة الثانية ، فى هذه القصة الحزينة ، فهى أن عبد الناصر ، بعد أن وضع السادات فى هذا المنصب الخطير ، تركه فيه لأنه « نسى » . هكذا يريدنا هيكل أن نصدق أن شيئا بالغ الأهمية كهذا يمكن أن ينسى بمثل هذه السهولة . ولكى يبرر لنا هذه الحجة الهزيلة يعدد أمامنا المشكلات التى انشغل بها عبد الناصر خلال الفترة التى كان السادات فيها « منسيا » فى منصب الرجل الثانى فى مصر . لقد كانت تلك مشكلات خطيرة حقا ، ولكن خطورتها ذاتها كانت تفرض على عبد الناصر أن يزداد تذكرا لموضوع خلافته ، لا أن ينساه ؛ فالسادات أمامه كل يوم ، وهو بالقطع لم يحصل على قرار التعيين نائبا لرئيس الجمهورية ثم أسرع يختبىء فى مكان بعيد ، داعيا الله أن ينساه الرئيس الى أن يموت ! وخطورة المشكلات التى كان يواجهها عبد الناصر هى ذاتها أقوى مبرر لكى يتذكر فى كل لحظة أن الوطن فى خطر ، وأن

من يخلفه في حمل الأمانة ينبغي أن يكون على مستوى المسئولية .

وحتى لو لم تذكره بموضوع الخلافة تلك الأحداث الجسام ، فان تصرفات السادات ذاتها لابد أنها أدت الى تذكيره بنوع الاختيار الذى قام به : فقد حدثت فضيحة القصر الذى استولى عليه السادات ، بالحاح من زوجته ، من ضابط سابق اشتغل فى الأعمال الحرة (لا أدرى من أين استولى عليه هو الآخر ، أو من أين أتته الأموال لشرائه) ـ حدثت هذه الفضيحة «بعد» تعيين السادات نائبا للرئيس ، وحسب رواية هيكل فان عبد الناصر غضب غضبا شديدا عندما علم بما حدث ، ومع ذلك فان هيكل يذكر ، بطريقة غير مفهومة ولأسباب غير واضحة ، أن عبد الناصر عندما هدأ غضبه كافأ السادات بقصر على النيل ! وهكذا فان عبد الناصر ، كما يصوره لنا هيكل ، تلقى انذارا واضحا بنوع السلوك الذى يمكن أن يسلكه السادات عندما يترك له حكم مصر . فاذا لم تكن المشكلات الدولية والقومية والوطنية الخطيرة التى كانت تشغل عبد الناصر ، عندئذ ، كفيلة بأن تذكره بضرورة اختيار خليفة وطني قادر على التصدى لها . ألم يكن اغتصاب السادات لبيت لا يملكه ، لمجرد انه أعجب زوجته ، كافيا لكى ينبه عبد الناصر الى عيوب الرجل الذى ائتمنه على أمته كلها من بعده ؟ ومع ذلك فان عبد الناصر ، حسب رواية هيكل ، كافأ السادات بقصر على النيل بعد فترة غضب قصيرة .. أيريد هيكل أن يوحى لنا بأن تصرفات مثل الاستيلاء على بيوت الآخرين لم تكن تصدم الحس الأخلاقى لعبد الناصر ؟ أيريد أن يقنعنا بأن مغتصب مال الغير كان فى نظره يستحق مكافأة ـ مكافأة عاجلة هى قصر على النيل ، ومكافأة آجلة هى النيل كله ، بأرضه وشعبه ؟

ولنتأمل تناقضا آخر : لقد كان عبد الناصر ، عندما عين السادات نائبا له ، يتحوط ضد مؤامرة تشترك فيها عناصر مغربية وتدبرها المخابرات المركزية الأمريكية . ولكن عبد الناصر كان ، من جهة أخرى ، يعرف أن للسادات ميولا أمريكية قوية .

وحسبنا دليلا على هذا أن نشير الى مقال كتبه السفير الأمريكي الأسبق في مصر ، لوشيوس باتل ، تحدث فيه عن رحلة رتبها للسادات وزوجته عام ١٩٦٦ ، وعاد بعدها السادات مبهورا بكل ما هو أمريكي • ويهمنا في المقال اشارة الكاتب الى أن عبد الناصر ، عندما قابله بعد ذلك في احدى الحفلات ، قال له : « صاحبكم هذا ، أنور السادات ، محب ولهان لأمريكا » ، فلما قال له السفير: « وما العيب في ذلك ، ليته كان هناك آخرون لديهم نفس الاتجاه في هذا البلد » ضحك عبد الناصر ، « ولكن كانت هناك دائما مسحة من الاستخفاف في تعليقاته »(١) • وبطبيعة الحال فان مسلك السادات تجاه أمريكا خلال سنوات حكمه تجعلنا لا نشك لحظة واحدة في صحة هذه الرواية • ولكن ، كيف يكون عبد الناصر على علم بميول السادات الأمريكية القوية طوال هذا الوقت ، ثم يختاره نائبا بسبب مؤامرة أمريكية محتملة ؟ هل يقبل الأب الذي يتعرض للتهديد بالقتل من أفراد عصابة معينة ، أن يختار أحد هؤلاء الأفراد وصيا على أبنائه من بعده ؟

ان قصة خلافة السادات لعبد الناصر ، والاختيار المشئوم الذي حدث في أحد أيام ١٩٦٩ ، هي قصة فريدة من نوعها • ولقد كانت الرواية التي أوردها هيكل عنها مليئة بالمتناقضات والمفارقات التي تستخف بعقل القارىء وتهين ذكاءه ، ولا أظن أن أحدا ، حتى هيكل ذاته ، يمكن أن يقتنع بهذه الرواية المهلهلة • وهنا يبرز سؤال هام : اذا كان تفسير هيكل لاختيار عبد الناصر للسادات مكشوفا في ضعفه الى هذا الحد ، فلما الذي جعله يلجأ اليه ؟

أغلب الظن أن هيكل اضطر الى ترويج هذا التفسير الهزيل لأنه وجد نفسه أمام سؤال محرج ، تسأله تلك الأجيال الشابة الجديدة التي تنظر الى عبد الناصر على أنه أعلى نماذج الوطنية ،

---

1) Lucius D. Battle : Anwar Sadat Remembered. SAIS REVIEW. Winter 1981-82, No. 3.

والتى رأت بنفسها ما لحق بمصر والعـــرب من انهيـــار فى عهــد السادات • هذا السؤال هو : كيف اختار زعيم كبير كعبد النــاصر خليفة مختلفا عنه فى كل شيء مثل أنور السادات ؟ ومما يزيد هذا السؤال تعقيدا ، أن هيكل أكد بصورة قاطعة أن عبد الناصر كان يعرف كل شيء عن السادات : كان يعرف ماضيه مع القصر ، وميله الى الاستمتاع بحياته بكل الطرق في حاضره ، وانبهاره بالأمريكان ، أعداء الوطن العربي الألداء منذ عام ١٩٦٧ على الأقل • واذن يعود السؤال بالحاح : كيف يقبل زعيم وطنى أن يأتمن شخصا مناقضا له في كل شيء على وطنه من بعده ؟ من أجل محاولة الاجابة عــلى هذا السؤال المحرج ، اضطر هيكل الى أن يتحدث عن تعيين نواب رئيس الجمهورية « بالدور » ، وعن « نسيان » الرئيس لنائبـــه فى مكانه الى أن خلفه بعد موته • أعنى ، بالاختصار ، اضطـــر هيكل الى أن يلفق اجابة لا تقنع أحدا •

وفى اعتقادى ، أولا ، أن هذا سؤال خطير وجوهرى ينبغى الا يقابل بأى استخفاف ، لأنه يتعلق بمصير الأمة العربية كلها ، الذى قامر به السادات على مائدة أمريكا بعد أن أعطاها ٩٩٪ من أوراق اللعبة ، ومن ثم فلا بد أن نلح فى المطالبة بتفسير له • وفى اعتقادى ثانيا أن من المستحيل تقديم اجابة مقنعـــة عن هـــذا السؤال فى اطار الموقف الذى يمثله هيكل : أعنى موقف الـــدفاع على طول الخط عن عبد الناصر ، والهجـــوم عـــلى طـــول الخط عـــلى السادات • فلكى نجيب عن هذا السؤال الحيـــوى اجـــابة مقنعة ، لابد أن نكون أكثر تعمقا فى تحليلنا من أن نتقيد بهـــذا الاستقطاب الناصرى ـــ الساداتى • وسأقوم ، من جانبى ، بمحاولـــة لتفســـير هذه الظاهرة التى تبدو مستعصية على الفهم ، آمـــلا أن ينظـــر القارىء الى هذا التفسير عـــلى أنه حـــافز للتفكير ، من حقـــه أن يقتنع به أو لا يقتنع ، ولكن من واجبه أن يفكر فيه بامعـــان :

ان الزعيم الذى يحكم حكما غير ديمقراطى لا يقبل بجانبه الا الأعوان الذين يطيعون ، وينحنون ، ولا يعارضـــون • وحـــين

يسود الطابع الفردى فى الحـــكم ، يظـــل الأعوان المحتفظـــون بكرامتهم والمتمســـكون بآرائهم ومواقفهم ، أو حتى أولئك الذين يخالفون الزعيم لمصالح شخصيـــة ، يظـــل هؤلاء يستبعـــدون واحدا بعد الآخر ، حتى لا يبقى فى النهاية الا الرجل الذى يقــول دائما : نعم • ولقد اقترب هيكل من الحقيقة دون أن يشعر حـين قال ، فى نفس الفصل الذى اقتبسنا منه من قبل : « كما حـدث من قبل ، وكما سيحدث فيما بعد ، فان طبيعة أنـــور الســـادات المستعدة للخضوع أمام الأقوى كانت هى التى حكمت موقفـــه • كانت أحسن أيامه هى تلك التى كان يستطيع فيها أن يلتصـــق بشخصية قوية » واذا كان هيكـــل قد قصـــد بهـذه الشخصية القوية ، فى كلامه السابق ، المشير عبد الحكيم عامر ، فان هـــذا الحكم يمكن أن ينطبق على مسلك السادات بوجه عام ، وان كان ذلك المسلك فى نظرنا واعيا متعمدا ، وليس مجـــرد تعبير عن شخصية ميالة للخضوع والالتصاق بالأقوياء •

كان السادات أذكى من الجميع لأنه أدرك قـــانون اللعبـــة : اترك الزعيم يمارس قوته واياك أن تقول له « لا » مهما فعـــل • ولكن ما ينبغى أن نتذكره هو أن هذا القانون يحتاج الى طرفين : طرف يلتزم بالقبول والخضوع ، وطرف آخر ـ هو الزعيم ـ يجعل مقياس قرب الناس منه هـــو مدى خضوعهم له ، ومدى تخليهم عن اراداتهم الخاصة لكى يكون هو صـــاحب الارادة الشاملة • فلكى ينجح « الأذكياء » ممن يجيدون فن طأطأة الرأس (حتى يعلو فيما بعد ، كما تقول أغنية سيد درويش المشهورة) ، لا بد أن يكون الطرف الآخر الذى يتعاملون معه من ذلك النوع الذى لا يستطيع أن يتحمل أي شخص يبدى استقـــلالا فى رأيه •ولـــذا كان من المستحيل أن ينجح « أهل الطأطأة » مع أى زعيم ديمقراطى •

وليتأمل القارىء دلالة العبارة التى يقول فيها هيكل : « كان بيت السادات فى الهرم هو المكان الوحيد الذى يستطيع فيه جمال عبد الناصر أن يذهب لكى يقضى بين حين وآخر ساعـــات مـــع

صديق لم يكن يضغط على أعصابه باثارة مناقشات سّياسية أو عسكرية ملحة » • هكذا كانت « الراحة » هنا تكمن فى أن يكون الصديق مطيعا لا يناقش فى الأمور الهامة ، بينما الذين كانوا يناقشون ، ويعارضون ، فى ظروف ما بعد هزيمة ٦٧ التى كانت تقتضى اعادة النظر فى كل شيء ، هؤلاء لم يكونوا « مريحين » •

وهكذا نصل الى القاعدة الهامة التى تحكم عملية الخلافة على السلطة فى الحكم غير الديمقراطى : ان الحاكم ، نتيجة لانفراده بالسلطة ، يشعر بأهمية القوة ويستأثر بهـا ، وبالتالى لا بد أن يزيح من طريقه كل من يحاول الحد من هذه القوة عن طريق المعارضة ، وكل من يرفض انفراده بالقرار • وهكذا يكون الضعيف الراضخ ، هو الذى يبقى فى النهاية بعد سلسلة التصفيات • وبعبارة أشد وضوحا ، فان ظاهرة السادات افراز طبيعى للحكم المطلق ، وأسلوب الحكم الذى انتهجه عبد الناصر كان لا بد أن يؤدى فى النهاية الى خليفة مثل أنور السادات •

وهنا تتضح لنا صفة تبدو على قدر كبير من الغرابة ، ولكنها تفسر الموضوع الذى نحن بصدده تفسيرا كاملا : فالحاكم القوى يؤدى فى هذه الحالة ــ بصورة حتمية ــ الى الحاكم الضعيف ، والمتشدد أمام قوى الاستعمار فى الخارج والطبقات العليا فى الداخل يفرز المهادن للاستعمار ، الذى يستسلم أمام الطبقات العليا ويسير فى ركابها • وبعبارة أخرى فان كل مظاهر الاختلاف بين عبد الناصر والسادات لا تتعارض مع كون الثانى استمرار للأول ونتيجة طبيعية له • هذه حقيقة ينبغى أن نتنبه اليها جيدا : اذ أن من يسمع أحدا يتحدث عن وجود استمرارية بين عبد الناصر والسادات ، يتصور أنه يقصد وجود تشابه بين العهدين فقط ، ولكن حقيقة الأمر أن هناك استمرارية مع التضاد : أعنى أن يكون الحاكم المهادن والمستسلم هو الامتداد الطبيعى للحاكم القوى المتشدد ، على الرغم من كونه نقيضا له ، بل « بسبب » كونه نقيضا له •

هذا هو التفسير الذى أعتقد أنه هو وحده القادر على الاجابة عن ذلك السؤال المحرج ، المحير ، الذى طرحناه من قبل ، وأعنى به : كيف يمكن أن يختار الحاكم الوطنى ، بنفسه ، خليفة غير وطنى ، يأتمنه من بعده على أمته وهى تمر بأخطر مراحل حياتها ، وتسعى بمشقة شديدة الى التخلص من براثن عدوان جاثم على صدرها ؟ فلنقل ان هذا ، على الأقل ، هو اجتهادى ، ومن حق أى شخص أن يعترض على ، ولكنه سيكون ملزما بأن يقدم تفسيرا أفضل ، يعلل جوانب الظاهرة كلها • وكل ما آمله هو أن لا يبلغ به الاستخفاف بعقولنا حدا يجعله يكرر شيئا مما قاله هيكل فى هذا الموضوع •

وسواء أكان التفسير الذى أقدمه مقبولا أم غير مقبول ، فليتذكر القارىء دائما أن الهدف من هذا الحديث الطويل ، بل من كل ما قلته وسأقوله فى هذا الكتاب ، ليس احراج هيكل ، ولا انتقاد السادات أو عبد الناصر ، وانما هو قبل كل شىء دعوة الى التفكير فى ذلك الجو العام الذى عاش فيه كل من شارك فى مأساة العرب خلال العقود الأخيرة •

ذلك الجو الذى يسمح للحاكم أن يختار خليفته بأكثر الطرق عشوائية ، وكأنه يغير لونا لملابسه ويستبدل به لونا آخر ، دون أن يستشير أحدا ، أو يحتكم الى شعب ، أو حتى أن يسأل صديقا مقربا ••••

ذلك الجو الذى يتم فيه للحاكم اختيار خليفته وهو على علم تام بسجله الطويل غير المشرف ، بعد أن تجمعت النذر التى توحى الى الحاكم بأن نهايته يمكن أن تحين •••

ذلك الجو الذى يكون فيه معيار اختيار حاكم المستقبل هو أن « عليه الدور » وأنه مطيع ، مريح ، لا يجادل ولا يناقش ، أى بالاختصار ، بحث الحاكم الموجود عن راحته هو ، بدلا من تفكيره فيما يمكن أن يحدث لأمته فى مستقبلها المحفوف بالأخطار ، لو تولى أمورها خلف من هذا النوع •••

ذلك الجو الذى يختار فيه الحاكم خليفته ثم « ينسى » ، ويمتد به النسيان شهرا وراء الآخر ، فى أحرج فترات التاريخ ، حتى يموت ناسيا ...

وأخيرا ، ذلك الجو الذى يسمح لكاتب بأن يروى لنا هـذا كله دون أن تطرف له عين ، ودون أن يرى فيه أى خطأ ، بـل يحكى قصة التلاعب بمصير أمة وكأنها حكاية مسلية ، ويجد مع ذلك من يدافع عنه ، ويصفق له ، ويعامله كما لو كان شهيـدا للحرية والديمقراطية .

انها قصة حزينة ، وأشد جوانبها مدعاة للحزن هو أن كل الأطراف فيها مدانون ، وكلهم يسهمون فى تلك الجريمة الكبرى التى لم ترتكب النظم اللاديمقراطية ما هو أفظع منها ـ جريمـة هدم العقول .

الفصل السابع

مع السادات على جناح واحد

الانطباع الذى يقدمه الينا هيكل عن علاقته بالسادات هو أنه كان شديد القرب منه فى السنوات الأولى من حكمه ، ثم اختلف معه بعد عام ١٩٧٤ ، فى الوسائل أولا ، وبعد ذلك فى الغايات والأهداف العامة . وهو لا يدع لنا أى مجال للشك فى التوحد بينه وبين السادات خلال تلك السنوات الأولى . « كنت شديد التعاطف مع السادات كانسان » ... « فى السنوات الأربع الأولى كنت أقرب اليه من أى انسان آخر » . « كانت هناك فترة فى علاقاتنا توحدت فيها مقاصدنا ... فكلانا كان يطلب سلاما قائما على العدل فى الشرق الأوسط ، وكلانا كان يريد أن يرى مصر حرة ومزدهرة ، والعالم العربى موحدا وقويا » . « أعتقد أننى لعبت دورا مؤثرا .. فى المداولات والمشاورات السياسية التى أدت الى اختيار السادات رئيسا للجمهورية بعد رحيل جمال عبد الناصر » .

هذه الاعترافات ليست فى الواقع مقصودة لذاتها ، بل ان الهدف منها هو أن يرد هيكل ، فى الصفحات الأولى من كتابه ، على ذلك الاعتراض الذى يمكن أن يوجهه أكثر الناس سذاجة الى هيكل حين يقرأ ما كتبه عن السادات فى « خريف الغضب » : كيف تهاجم السادات الى هذا الحد مع أنك كنت من أقوى دعائم

حكمه ؟ وهكذا قرر هيكل ، بذكاء شديد ، أن ينزع مخالب القارىء المعترض منذ البداية ، ويقول له في الصفحات الأولى : نعم ، لقد كنت قريبا جدا منه ، ولكن طريقينا قد افترقا فيما بعد لأسباب متعلقة بالمبادىء السياسية ·

هذا اعتراف يؤدى ، اذا ما صدقه القارىء ، الى استبعاد أية شبهة للتناقض بين مواقف هيكل القديمة والجديدة ، والى تجريد سلاح كل من يحاول الاشارة الى الاندماج والانسجام التام الذى كان قائما بين هيكل والسادات في وقت من الأوقات ، والى اعطاء هيكل كل الحق في هجومه المتأخر على السادات ، بعد أن كان من أقوى أنصاره ·

ولكن ، هل يفلح هذا الدفاع حقا فى تبرئة هيكل من تهمة التناقض ، والتقلب من عهد الى عهد ؟ فى رأيى الخاص أنه لا يفلح ·

ذلك لأن هيكل قد ارتكب فى كتابه خطأ قاتلا ، هو اشاراته الطويلة الى الجوانب الشديدة السلبية فى تاريخ السادات قبل أن يتولى الحكم · هذه الاشارات لو كانت قد صدرت عن كاتب محايد لم يرتبط بالسادات فى أى وقت ارتباطا عضويا وثيقا ، لكانت مصدرا عظيم القيمة للمعلومات عن عادات وممارسات حاكم مثير للكثير من الجدل · ولكن صدورها عن هيكل بالذات يلحق به هو ذاته أفدح الأضرار ·· ذلك لأننا لن نجد عندئذ عذرا نبرر به تعاطف هيكل مع السادات « كانسان » فى السنوات الأولى من حكمه ، أعنى فى وقت كانت فيه جميع عيوب السادات السابقة معروفة للجميع · فكيف تعاطف هيكل مع السادات كانسان فى الوقت الذى كان يعرف فيه عنه كمية هائلة من المعلومات تشينه الى أبعد حد كانسان ؟ اننا لو شئنا الدقة لقلنا ان ما قاله هيكل ، أخيرا ، عن طفولة السادات وشبابه والسنوات التى قضاها « فى ظل عبد الناصر » بكل ما اتسمت به من فساد ورشاوى واتصال بجهات مريبة وانتفاع من أثرياء العرب - كل ذلك لا يدين هيكل فى تعاطفه بعد ذلك مع السادات فحسب ، بل يدين

عبد الناصر في قبوله شخصا كهذا ضمن المسؤولين في حكمه ، ثم وقوع اختياره عليه هو بالذات ليكون خليفة له • والأهم من ذلك ان هذه المعلومات تدين أسلوب الحكم الذي يسمح لشخص ينسم بكل هذه العيوب بأن يصمد طوال كافة تقلبات العهد ، ثم يصعد الى المرتبة العليا التي لا ينازعه فيها أحد • هذه كلها أمور واضحة ، لا تشفع فيها كلمات هيكل التي حاول بها أن يخفف مرارة الحقيقة في الصفحات الأولى من كتابه •

ولكن يبدو أن هيكل لم يكن مرتاحا كل الارتياح الى العذر الذي قدمه لقرائه ،ولم يكن مطمئنا كل الاطمئنان الى أنهم سيقتنعون به • وهكذا نراه بعد قليل يقدم عذرا آخر فيقول : « وأظن أيضا أنني لم أكن غافلا عن بعض أسباب القصور فيه ، لكنني تصورت أن أعباء المنصب ووقر المسؤولية سوف تقوى كل العناصر الايجابية في شخصيته ، وسوف تساعده في التغلب على جوانب الضعف فيها • كان في ذهني باستمرار نموذج الرئيس الأمريكي هاري ترومان ، الذي خلف فرانكلين روزفلت في مقعد الرئاسة الأمريكية قرب نهاية الحرب العالمية الثانية • فقد بدا ترومان في ذلك الوقت ، وبعد روزفلت ، شخصية باهتة ومجهولة لا تستطيع أن تقود الصراع الانساني الكبير في الحرب العالمية الثانية الى نهايته المطلوبة والمحققة • ولكن ترومان ، أمام تحدي التجربة العملية ، نما ونضج وأصبح من أبرز الرؤساء الأمريكيين في العصر الحديث • ولقد تصورت أن نفس الشيء يمكن أن يحدث للسادات » •

هنا يواصل هيكل أسلوبه في مخاطبة الناس كما لو كانت عقولهم ملغية • فهو الآن يقول ، مبررا تقلباته : نعم ، لقد كنت أعرف أن في الرجل عيوبا ، ولكنني تصورت أن الحكم سيصلحه ! ما الذي يرغمك على هذا التصور يا سيد هيكل ؟ ألم يخطر ببالك الاحتمال الآخر ، والأوضح ، وهو أن الحكم والقوة ستزيده فسادا ؟ وهل كانت مجموعة العيوب التي أحصيتها في مختلف مراحل

حياته ، من النوع الذى يمكن أن ينصلح تحت وطأة مسؤوليات الحكم ؟ انك تتحدث عن تقوية العناصر الايجابية فى شخصيته ، والتغلب على عناصرها السلبية • ولكنا لم نسمع منك ، طوال الفصول التى تحدثت فيها عن السادات قبل توليه الحكم ، ذكرا لأى عنصر ايجابى ، فعلى أى شىء اذن كنت تعلق آمالك ؟

أما قصة روزفلت وترومان ، فهى أقبح عذر يمكن تصوره لأقبح ذنب • ذلك لأن أحدا لم يقل عن هارى ترومان انه أصبح من أبرز الرؤساء الأمريكيين فى العصر الحديث • فتاريخ ترومان يرتبط فى الأذهان بقرار بشع استهل به حكمه ، وما زالت الانسانية تلعنه من أجله حتى اليوم ، وهو قرار القاء القنبلتين الذريتين فى هيروشيما ونجازاكى ــ وهما القنبلتان الذريتان الوحيدتان اللتان استخدمتا ضد البشر حتى اليوم • فهل هذا ما يقصده هيكل بعبارة « قيادة الصراع الانسانى الكبير فى الحرب العالمية الثانية الى نهايته المطلوبة » ؟ أما فى أذهاننا نحن العرب ، فان اسم ترومان يرتبط بتاريخ أسود ستلعنه من أجله كل أجيالنا التالية : هو القيام بأهم دور فى قيام دولة اسرائيل ، والاعتراف بها بعد خمس دقائق من اعلان قيامها ، والضغط على أكبر عدد ممكن من دول العالم من أجل الموافقة على قرار الأمم المتحدة بشأنها • فهل هذه هى الأسباب التى أصبح من أجلها ترومان ، فى نظر هيكل ، واحدا من أعظم رؤساء أمريكا فى العصر الحديث ؟ أستطيع ، من وجهة نظرى الخاصة ، أن أعطى هيكل كل الحق فى تشبيهه لأنور السادات بترومان ، اذا كان المقياس الذى نتبعه هو مقدار الخدمات التى يؤديها الرئيس لدولة اسرائيل !

انها ، اذن ، حجج لا تقنع أحدا ، تلك التى ساقها هيكل لتبرير ارتباطه الوثيق بالسادات فى السنوات الأولى من حكمه ، ولم يكن اختياره أن يستخدم حججا متهافتة كهذه الا حلقة أخرى فى سلسلة التعتيم الفكرى الذى يلجأ اليه أولئك الذين نشأوا ، وازدهروا ، وترعرعوا ، فى ظل نظم حكم متسلطة ،

لاديمقراطية ، تستخف بعقول الناس وتستهين بذكائهم ٠

وحقيقة الأمر أن قصة ارتباط هيكل بالسادات أطول وأعقد من ذلك بكثير ٠٠

٠

هناك شواهد كثيرة وقوية على أن حكم عبد الناصر كان يضم ، في سنواته الأخيرة على الأقل ، « أجنحة » متنافسة ومتعارضة ٠ كان هناك الجناح العسكرى المسك بقوة الجيش ، والملتصق بالمشير عامر (شمس بدران وقادة الأسلحة المختلفة قبل ١٩٦٧) ٠ وكان هناك الجناح التنفيذى الملتصق بعبد الناصر فى عملية الحكم (سامى شرف ، شعراوى جمعة ، محمد فايق ، الخ ٠٠٠) وكان يقود هذا الجناح على صبرى ٠ وكان هناك الجناح الهادىء ، المتربص ، الذى يحتفظ بعلاقاته بعبد الناصر بحذر شديد ، دون التورط فى ممارسات تثير المتاعب : أنور السادات ، محمود فوزى ، سيد مرعى ، حافظ بدوى ٠ وأكاد أجزم بأن هيكل كان ينتمى الى هذا الجناح الأخير ٠ فالشواهد قوية على أن هيكل كان من مجموعة أنور السادات قبل أن يتولى هذا الأخير الحكم بوقت غير قصير ٠

ويكفي ، كمثال واحد للتدليل على ذلك ، أن أستشهد بما قاله هيكل نفسه فى مقاله الذى أشرت اليه فى موضوع سابق : « ما أكثر الشجاعة هذه الأيام على الغائبين » ٠ فهو فى هذا المقال يروى قصة اعتقال عبد الناصر لأحد المثقفين المرتبطين بهيكل فى جريدة « الأهرام » ، وكيف غضب هيكل ولازم بيته أياما دون أن يفاتح عبد الناصر فى الموضوع ٠ والذى يهمنا فى هذا أن أنور السادات كان هو الذى اتصل به قائلا : « ما هذا الذى تفعله ؟ انك تترك الجو هنا لكل من يريد أن يستثير ويحرض » ثم قال : « اتصل به (بعبد الناصر) فورا وتحدث معه بنفسك ، ولا تترك المجال مكشوفا لآخرين » ٠ وبعد يومين عاود السادات الاتصال بهيكل قائلا : « يظهر أنك جننت ٠ لماذا تترك الأمر بينك وبينه

لكل من يريد أن يتبرع بكلمة ؟ » ٠

هنا يظهر بوضوح أنه كانت هناك مجموعتان ، واحدة يمكن أن تحرض عبد الناصر ضد هيكل ، وأخرى حريصة على سلامة هيكل ضد المجموعة الأخرى ، وفيها أنور السادات ٠ ولا شك أن تطوع السادات بكل هذه النصائح الى هيكل يدل على أنهما كانا ينتميان الى معسكر أو جناح واحد ٠

وربما وصف البعض هاتين المجموعتين وصفا أيديولوجيا ، فقال ان الأولى (على صبرى) يسارية ، والثانية (السادات) يمينية ، ولكن هذا فى رأيي وصف لا يصدق الا فى حدود ضيقة ٠ فقد تعاملت المجموعة الأولى بالفعل مع السوفييت فى وقت كانت مصالحهم فيه تقتضى ذلك ، وأنا أشك جدا فى أن يكون هناك أى أساس أيديولوجى حقيقى لهذا التعامل ٠ أما مجموعة السادات فكان موقفها أوضح ، هو الميل الشديد الى الجانب الأمريكى ، وان كان هيكل ، داخل هذه المجموعة ، أشد حذرا وأقل انكشافا بكثير من الآخرين ٠

وعلى أية حال فان الأحداث التالية أثبتت صحة هذا التقسيم الى جناحين حول عبد الناصر : اذ أن الخلافات بين الجناحين خرجت الى العلن بعد موت عبد الناصر ، وكان فرسان المجموعة المحيطة بالسادات هم هيكل ومحمود فوزى (الذى عينه السادات رئيسا للوزراء) ، وبذل هيكل ، كما سنرى فيما بعد ، مجهودا خارقا للعادة لكى يفضح المجموعة الأخرى ويبرر القاء السادات بأهم أعضائها فى السجون ، ولكى يثبت أن طريق السادات هو الطريق الصحيح ٠

وربما تساءل البعض : ما الذى كان يدعو عبد الناصر الى أن يتعامل مع مجموعتين متنافرتين الى هذا الحد ؟ (لاحظ أن مجموعة عبد الحكيم عامر قد تمت تصفيتها نهائيا بعد هزيمة ١٩٦٧) ٠ وهذا سؤال يصعب الاجابة عليه ، اذ أن ما يبدو للوهلة الأولى ، ولأصحاب النوايا الطيبة ، هو أن التعامل مع مجموعتين متنافرتين

يعطل وضع البرامج وتنفيذ السياسات التى كان يضعها عبد الناصر • وعلى سبيل المثال ، فان الاجراءات الاشتراكية لن تستفيد من وجود أشخاص مثل السادات ومرعي وعثمان أحمد عثمان فى قلب النظام ، ولا جدال فى أن هؤلاء لم يقبلوا تلك الاجراءات الا خوفا من عبد الناصر أو مسايرة له • وهكذا يظل السؤال قائما ، والرد الوحيد الذى أتصوره هو أن نظام الحكم كان ، بسبب عدم ديمقراطيته ، مرتكزا على القوة ، والقوة تحتاج دائما الى توازنات • ومن المفيد ، من أجل استقرار النظام ، أن تكون هناك مجموعتان تنشغل كل منهما بالأخرى ، ويمكن ضرب احداهما بالأخرى اذا ما تمادت فى ممارسة قوتها ••• أما تأثير ذلك على مصر ، فعلمه عند الله !

ثم جاء السادات الى الحكم ، وأصبحت الفرصة متاحة لجناحه لكى يبسط سلطته ونفوذه • وكان أول ما فعله هيكل هو أنه قام بدور رئيسى فى تأكيد أحقية السادات بخلافة عبد الناصر على أساس « الشرعية » ، أى لأن عبد الناصر هو الذى اختاره نائبا • وهكذا يقول فى كتابه الأخير : « أدرنا الحملة الانتخابية للسادات فى الاستفتاء على رئاسة الجمهورية (وكان المشرف عليها هو هيكل شخصيا) على أساس أنه كان الرجل الذى اختاره جمال عبد الناصر لهذا المنصب بنفسه حين أحس باحتمال خطر على حياته » •

هل ترى الخدعة أيها القارىء العزيز ؟ ألا تشعر بأن عقلك قد أهين عندما تقرأ هذا الكلام ؟ لقد أراد هيكل أن يقنعنا من قبل بأن اختيار عبد الناصر للسادات كان مجرد صدفة ، ولم يكن مقدرا له أن يدوم أكثر من أسبوع ، وكان يرجع فقط الى أن السادات « عليه الدور » ، وكان فى ذهن عبد الناصر أن يغير قراره ولكنه انشغل ، ولم يكن بقاء السادات نائبا حتى بموت عبد الناصر الا ضربة حظ جعلت الرئيس « ينسى » هذا الموضوع • حسنا ،

لنصدق هـــذا كله · ولكن اذا صح أن هذا هـو رأى هيكل فى الموضوع ، فكيف سمح لنفسه بأن يقود الحملة الانتخابية للسادات بحجة تفترض أن اختيار عبد الناصر له كـــان اختيارا سليما ، وحقيقيا ، وتعبيرا عن رغبته الأصيلة والدائمة ؟ ان هيكل نفسه ـ تبعا لما قال ـ لم يكن مقتنعا بهذا الاختيار العارض ، بل يبدو أنه ناقش عبد الناصر فيه ، فكيف يدير هيكل حملته على أساس أن الاختيار كان أصيلا ؟ ان المسألة لا تحتمل الا أحد أمرين : فاما أن عبد الناصر كان قد اختار السادات لأنه كان مقتنعا به ، وعندئذ تكون قصة « الدور » و « النسيان » قصة ملفقة (ويكون عبد الناصر ذاته قد أعطى شعبه أسوأ « هدية » لمستقبل أيامه) ، واما أن عبد الناصر كان قد اختاره بصورة مؤقتة ، ولم يكن ينوى أن يحتفظ به الى النهاية ، وفاجأه الموت قبل أن يعـدل عن رأيه ، وعندئذ يكون هيكل قد أدار حملة السادات الانتخابية على أساس عملية غش كبرى موجهة ضد الجماهير البريئة الذاهبة الى صناديق الاستفتاء ·

اذن فقد أصبح السادات ، بفضل مؤازرة هيكل وتعاونه معه قلبا وقالبا ، رئيسا للجمهورية · ولكن الأمر لم يستتب له عـلى الفور ، فقد كان هناك الجناح الآخر ، الذى لم يكن مقتنعا بالسادات الا بوصفه رئيسا انتقاليا ، ولم يسكت عن ترشيحه الا لكى يتم عبور تلك اللحظات الحرجة التى أعقبت وفاة جمال عبد الناصر بسلام · وهكذا بدأت الاختـــلافات والمنـــاوشات والانقسامات ، وكان الخلاف محتدما على أشده بين الجناح الناصرى التنفيذى ، الذى كان أكثر عددا وأقوى رسوخا بكثير ، وبين الجناح الســاداتى ، الذى كان يتمتع بميزة هامة ، هى كرسى رئاسة الجمهورية (وهو أمر له أهميته القصوى فى نظام حكم غير ديمقراطى) ، وكذلك دهاء أقطابه وحنكتهم السياسية ، وعلى رأسهم هيكل ·

المهم أن الصراع أسفر فى النهاية عن انتصـــار ساحـق ،

وشديد السهولة ، للجناح الساداتي على الجناح الآخر الذي كان ، رغم سيطرته على أهم مرافق الدولة ومعظم التنظيمات السياسية ، يدير دفة الصراع بقصور شديد • وبعد أن حسمت نتيجة الصراع لصالح السادات فيماعرف بحركة التصحيح (وفيما بعد : ثورة التصحيح) فى ١٥ مايو ١٩٧١ ، أي بعد ستة أشهر من اعتلاء السادات الحكم ، أصبح الطريق مأمونا ، وكتب هيكل مسجلا موقفه من هذا كله « بصراحة » • ومن المهم جدا أن نتابع هذا الذى كتبه هيكل فيتلك الفترة لعدة أسباب :

أولا : أن هذه الفترة تمثل منعطفا حاسما فى السياسة المصرية ، تحددت فيه بالتدريج معالم الخط المميز لحكم السادات فى السبعينات وأوائل الثمانينات •

ثانيا : أن كتابات هيكل ، بما تضمنته من حماسة شديدة للسادات ، تكشف عن العلاقة العضوية الوثيقة بين الرجلين ، وتؤكد أن هذه العلاقة كانت قائمة منذ عهد عبد الناصر ، وخرجت الى العلن عندما تخلص السادات من منافسيه •

ثالثا : أن هذا التمجيد الذى أغدقه هيكل على السادات ، حدث فى وقت كان يعلم فيه من هو السادات ، وكان يعرف تاريخه الذى رواه فى « خريف الغضب » ، والذى كان يمتد على مدى ثلاثين عاما ، من أوائل الأربعينات حتى أواخر الستينات •

رابعا : أن هذه الكتابات تتحدث فى كثير من الأحيان عن وقائع رويت فيما بعد فى « خريف الغضب » ، ولكننا نجد الواقعة الواحدة تصطبغ بلونين مختلفين كل الاختلاف : ساطع براق فى عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢ ، وأسود قاتم فى ١٩٨٣ ، الفرق بين الاثنين ، بالطبع ، يكشف عن مستوى القيم الأخلاقية لدى أنصار مدرسة معينة فى الصحافة والسياسة ، لا تجد فى ارتداء الأقنعة وخلعها ، تبعا للعهود ووفقا للمصالح ، أى عيب أو نقيصة •

خامسا : أن هذه الكتابات تثير سؤالا على جانب كبير من الأهمية ، هو : الى أى مدى كان هيكل ناصريا ؟

● يصف هيكل ، فى أول مقال يكتبه بعد أحداث ١٥ مايو ، أيام الأزمة فيقول : « لقد عشت لحظة التفجير ، ومن حسن الحظ أن التدمير لم يقع ، وتلك شهادة تاريخية لأنور السادات وشجاعته الأدبية والمادية فى لحظات بالغة الصعوبة والخطر » .

● « لقد كنت أول من دعاه الرئيس أنور السادات الى بيته صباح الأربعاء ١٢ مايو ولم يستدعني بالتليفون ، كما تعود أن يفعل ، ولكنه بعث الى بكـريمته تـدق باب بيتى فى الصباح الباكر ... » (تأمل مدى التعاون والتفاهم بين الرجلين فى لحظة التحول) .

● يكتب هيكل على لسان السادات ، فى حملة الدعايـة الهائلة التى شنها لدعم مركزه بعد الحركة : « ان لدى الشجاعة أن أقف أمام الملأ وأقول بأعلى صوت اننى لا أريد أن أكون رئيسـا لهذا البلد وفق شروط يمليها من يدعون أنهم ولاة الأمر على . اننى أعمل بضميرى ولن أعمل باملاء أحد على . واقوى سلاح أملكه فى يدى أننى لا أتمسك بأن أظل رئيسا » .

● « كان أنور السادات فى هذه الساعة الحاسمة من التاريخ هائلا بأكثر مما يستطيع أن يتصور أو يصف أحد . كانت قراراته لمواجهة التطورات المفاجئة ، مزيجا مدهشا من الهدوء والحسم » .

● « كانت لحظة حاسمة فى تاريخ مصر ... وكانت لحظـة رائعة نبيلة »(١) .

● يتحدث هيكل عن انتصار ذلك الذى قال عنه فيما بعد انه تولى الحكم بصدفة تاريخية غير مقصودة ، فيقول : « عشنا المحنة مرتين فى السنوات الأخيرة ، ولولا عنايـــة الله مع جمال عبد الناصر مرة (يقصد أيام تمرد عبد الحكيم عامر بعد الهزيمة) ، وعناية الله مع أنور السادات مرة ثانية ـ لسقطت مصر فى أعمـاق الظلام والخوف » .

---

(١) الاقتباسات السابقة كلها من مقال هيكل الأسبوعى « بصراحة » ، بعنوان: ماذا أقول ؟ ـ الأهرام ١٩٧١/٥/٢١ .

● يصف هيكل الحوار الذى كان يدور بين السادات وخصومه فيقول : « كان أنور السادات صادقا ، ولم يكونوا صادقين » .

● « كان أنور السادات يتصرف على سجيته .. سجية مصرى أصيل مفتوح القلب والعقل معا » .

● « حدثت المعجزة فى المرة الثانية التى استفقنا الآن من هولها بسبب أن مواطنا تحرك ضميره فذهب بأشرطته فى الليل الى رئيس الجمهورية يضع الحقيقة تحت تصرفه ، ثم كانت بعد ذلك شجاعة رجل فى موقع المسؤولية الأولى تصرف بجرأة نادرة فى لحظات خطر محيق »(٢) .

● « قال الرئيس السادات بلهجته الودودة : محمد ... ودار بيننا نقاش طويل كان فيه الرئيس كريما وحليما كعادته »(٣) .

● « هذه المرحلة هى التى ستجعل من أنور السادات ـ باذن الله ـ قائدا تاريخيا لشعبه وأمته ، لأن القيادة التاريخية مرتبة أعلى بكثير من الرئاسة مهما كان وصفها »(٤) .

● « لقد أثبت أنور السادات ذلك عمليا فى معركته ضد مراكز القوى . كان أمامها أعزل من أى سلاح ... وكانوا أمامه ومعهم كل أدوات السلطة فى مصر . وكنسهم من فوق الأرض كنسا لأن الجماهير كانت معه »(٥) .

● ويصل الأمر بهيكل الى حد أن يمتدح فى السادات نفس المظاهر التى هاجمه من أجلها فيما بعد فى « خريف الغضب » . فنشاط السادات السياسى فى شبابه ، الذى وصف فى « الخريف »

---

(٢) مقال : « السؤال الأول والأكبر » ـ الأهرام ١٩٧١/٥/٢٨ (وجميع الاقتباسات السابقة من نفس المقال) .

(٣) « كيسنجر وانا » ـ ١٩٧٢/١٢/٢٩ .

(٤) « الخطوة الضرورية » ـ ١٩٧١/١١/٢٦ .

(٥) علامات على طريق طويل » ـ ١٩٧٢/٢/١١ .

بأنه عمالة للقصر ، وفقره العائلي الذى وصف بأنه سبب عقدته النفسية وعلة تكالبه على مظاهر الترف ، كان لهما وصف مختلف تماما فى عام ١٩٧٢ :

« كان أنور السادات أكثر ما يكون أمانة حين قال : اننى أفهم ما يعانيه الشباب ، وأنا الـذى خرجت من طين مصر الى التمرد ، والى السجن والى التشرد ، ثم الى الثورة » . ويواصل هيكل كلامه قائلا: « يقول أنور السادات نفسه : كنت دائما من قاع السلم الاجتماعى فى مصر . من قلب الطين ، ولقد تعلمت بمعجزة ، وعندما أتممت تعليمى وجدت أن العمل الوطنى أهم بالنسبة لى من أى وظيفة مع حاجتى الشديدة الى مرتبى ... وجدت نفسى فى السجن ، متهما بالتعاون مع الألمان ، وكان ذلك صحيحا ، ولكن تعاونى مع الألمان لم يكن من أجل هتلر وانما من أجل مصر »(٦) .

أما استراحة القناطر ، التى صارت فيما بعد ، مع غيرها من الاستراحات ، نموذجا للترف الذى يتمتع به السادات على حساب الشعب ، فقد قال عنها هيكل : « كنت على موعد مع الرئيس السادات فى استراحة القناطر التى يفضل الاقامة فيها كلما استطاع ، لأنها تجعله بقرب الريف الذى يعتبره مصر الأصيلة ومصر الحقيقية »(٧) .

ان هذه الاقتباسات تغنى عن كل تعليق . وحسبنا أن نقول ان الصفات المعنوية والأخلاقية للشخص الواحد لا يمكن أن تتغير فى مرحلة واحدة من حياته . ولكننا عند هيكل نجد أنفسنا ازاء ساداتين ، لا سادات واحد : أحدهما كان بطلا عندما كان هيكل راضيا عنه وشريكا له ، والآخر كان منحرفا عندما حل « خريف الغضب » . ويظل السؤال الأهم ، بعد هذا كله ، هو : اذا كان لدينا « ساداتان » ، فكم هيكل هناك ؟

---

(٦) « قضية هذا الجيل » – ١٩٧٢/١/٢٨ .

(٧) « على هامش التطورات الأخيرة » – ١٩٧٢/٧/٢٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الحـديث السابق كلـه كانت هنـاك اشـارات كثيرة الى الصراع بين جناحين فى ظل عبد الناصر ، والأمر اللافت للنظر هو أن كلا من الجناحين كان يؤكد أنه هو الذى يمثل تراث عبد الناصر على حقيقته · ولما كان هيكل قد انتمى ، بقلبه وقالبه ، الى الجناح الساداتى فى تلك الفترة ، فقـد كان من المحتم أن يؤكـد ، فى كتاباته ، أن السادات وريث الناصرية الأصيلة ، وأنه هو الذى يعبر عن مبادئها خير تعبير ·

فهو يقول عن حركة التصحيح : « اننا لسـنا أمـام بداية جديدة ، وانما نحن على طريق الاستمرار ، والا وجدنا أنفسـنا نقـع فى شرك ينصـبه أعـداء الثورة السياسيـة والثورة الاجتماعية »(٨) · ويكتب هيكل عن حـوار دار بينه وبين السادات حول الناصرية فيقول : « قال أنور السادات بالأمانة كلهـا : اننى لا أرى طريقا آخر غير طريق عبد الناصر »(٩) · ويدافع هيكل عن ناصرية السادات الأصيلة فيقول : « عبد الناصر والناصرية لا يمكن رؤيتهما من خلال ثلاثة أو أربعة أساءوا اليه واليها والى أنفسهم ، وانما يرى وترى من خلال كثيرين أحسنوا ·· أنور السادات وكان هو الذى اختاره واستخلفه من بعده ، ومع أنور السادات مئات من المعاونين والمساعدين يقودون العمل المصرى فى كل الميادين »(١٠) · ويدعو شعب عبد الناصر الى الوقوف وراء السادات فيقـول : « ان قيادة أنور السادات ، على طريق جمال عبد الناصر ، هى الممثل الشرعى لحركة الثورة الوطنية والقوميـة فى المرحلة الراهنة · وظنى أن هذه القيادة وتأييدها الى آخر المدى هو العاصم الحقيقى فى هذه الظروف من جاهلية اليمين المتخلف وجهـل اليسـار المغامر »(١١) ·

---

(٨) « ماذا أقول ؟ » ـ ١٩٧١/٥/٢١ ·
(٩) « حديث عن تجربة » ـ ١٩٧٢/١/١٤ ·
(١٠) نفس المقال ·
(١١) « علامات على طريق طويل » ـ ١٩٧٢/٢/١١ ·

ولكن هيكل في الوقت ذاته كان يمهد للتغيير • وعندما كتب في نوفمبر ١٩٧٠ مقالا بعنوان « عبد الناصر ليس أسطورة » أثار ضجة كبرى لدى الفريق الآخر ، الذى كان يؤكد تمسكه بالناصرية كما وضع معالمها عبد الناصر نفسه • ولقد دار خلاف طويل بين الفريقين حول أسباب الصراع بينهما ، وهو خلاف لا يعنينا هنا أن ندخل في تفاصيله أو نصدر حكما على طرفيه ، بل ان ما يعنينا هو أن هيكل ، الذى أعلن نفسه حاميا لتراث الناصرية ، كان في تلك الفترة يقف من الناصرية موقفا يدعو الى التساؤل عن طبيعة انتمائه اليها •

فهو قد حارب الجناح « المتطرف » ، اذا جاز هذا التعبير ، وساند الجناح المعتدل ، اذا جاز التعبير أيضا ، ثم عاد في كتابه الأخير فهاجم الجناح المعتدل أيضا • وهكذا تظل الناصرية عنده هي ما يرتبط بشخص عبد الناصر فقط ، لا بأى تنظيم معين انبثق عنها •

وعندما حارب الجناح المتطرف ، هاجمه على أسس متعددة : فهو يصف أقطاب هذا الجناح بالجهل الشديد ، الى حد أنه يدون في أحد مقالاته محتويات شريط لجلسات تحضير أرواح حضرها هؤلاء الأقطاب ، مع أستاذ جامعى اتخذوه وسيطا ، وأخذوا فيها يسألون « الروح » عن أخطر الأمور المتعلقة بتخطيط حركتهم وتوقيتها(١٢) ، واذا صحت القصة (وأنا شخصيا غير مقتنع بها) فانها تلقى ظلالا من الشك على العهد الناصرى كله ، الذى كان هؤلاء يشغلون فيه مراكز القوة الحقيقية • وبالطبع لا يرى هيكل ، كعادته ، أن ما يقوله عن هؤلاء هو قبل كل شيء طعن في عبد الناصر ، الذى أسلم مقاليد بلده لأشخاص على هذا المستوى ، بل هو طعن في هيكل بدوره ، الذى رضى بأن يكون فيلسوفا لعهد يضم في داخله مثل هذه النوعيات •

أما تأييده للجناح المعتدل ، فكانت عواقبه وخيمة : اذ أن

---

(١٢) « تحضير الأرواح » — ١٩٧١/٦/٤ •

هذا الجناح هو الذى تولى ، فى السبعينات ، القضاء على كل المقومات الرئيسية للناصرية ، كما حددها هيكل نفسه : أعنى الحياد الايجابى والاستقلال الوطنى والتصدى للامبريالية والصهيونية والنمو المستقل فى ظل اقتصاد مخطط • أى أن نفس المجموعة التى اختار هيكل الوقوف فى صفها ، كانت هى التى تولت تصفية الناصرية ، حسب مفهومه لها •

وحين عاد هيكل بذاكرته الى الناصرية بعد عبد الناصر ، وجد التنظيمات الناصرية مفككة وعاجزة عن العمل السرى أو العلنى ، ومفتقرة الى القيادات القادرة(١٣) • ولكن ناصريا معروفا هو « فريد عبد الكريم » يؤكد تماسك الناصرية وثبات مبادئها ، وينفى الفكرة القائلة انها تقوم على شخصية الزعيم ، مع اعترافه بالدور الأساسى الذى تلعبه هذه الشخصية • أما « عبد الهادى ناصف » ، وهو بدوره ناصرى مخلص ، ومن النماذج النقية لهذا الاتجاه ، فقد كانت معاركه مع هيكل قديمة العهد ، منذ أن نشر هيكل مقال « تحية للرجال » الذى تضمن مبالغة شديدة فى تصوير صعوبة عبور قناة السويس ، ورد عليه « ناصف » بهجوم مضاد عنيف على اتجاهات هيكل التى رأى فيها ابتعادا عن الناصرية • وما زالت المعركة بين الاثنين قائمة(١٤) •

المهم فى الأمر أن كثيرا من الناصريين المتمسكين بمبادئهم يتشككون فى ناصرية هيكل ، لأسباب عدة :

فهو قد هاجم أهم رموز الناصرية بمجرد موت عبد الناصر ، بحيث يمكن أن ينظر الى هجوم هيكل عليهم بوصفه هجوما على شىء فى صميم الناصرية ذاتها •• وهو قد أبدى تأييدا لا شك فيه للتحولات الساداتية فى السياسة الداخلية والخارجية ، خلال الفترة الحاسمة التى سبقت حرب ١٩٧٣ ، وهى التحولات التى

---

(١٣) انظر فصل « النزول الى العمل السرى » فى « خريف الغضب » •

(١٤) انظر لعبد الهادى ناصف مقال : « من التفسير التآمرى الى المحاكمة على الفكر والنية » ـ جريدة الأهالى ـ ١٩٨٢/١٢/٢٢ •

سنرى فيما بعد أنها تنطوى ـ من وجهة نظر معينة ـ على بذرة الاستسلام لاسرائيل وفتح الأبواب لأمريكا وتخريب الاقتصاد الوطنى باسم الانفتاح • والأهم من ذلك أنه كان من الدعائم الكبرى لحكم السادات ، فى الفترة الحرجة الأولى ، على الرغم من كل ما يعرفه عن الاختلاف الهائل بين السادات وعبد الناصر فى الشخصية والفكر والاتجاه •

وهكذا يتبرأ كثير من الناصريين المتمسكين بعقيدتهم من هيكل ، بل ويناصبونه العداء • وعندما يستعرض المرء تطور مواقف هيكل ، منذ بدء ارتباطه بعبد الناصر حتى اعتقاله القصير الأمد فى عهد السادات ، لا يملك الا أن يتساءل : هل كان هناك أى أساس حقيقى لتلك العلاقة التى ارتبط فيها اسم هيكل بالناصرية ، باستثناء ولائه لشخص عبد الناصر ـ ذلك الولاء الذى كان فى الوقت ذاته المصدر الأول لشهرته ونفوذه ؟ سؤال أترك الاجابة عنه للناصريين أنفسهم • أما عن نفسى فاننى كلما صادفت حالة من تلك الحالات التى تسىء فيها كتابات هيكل الى عبد الناصر أبلغ الاساءة ، دون قصد منه ، فانى لا أملك الا أن أدعو لعبد الناصر بأن يرحمه الله من أصدقائه ، أما أعداؤه فقد كان هو ذاته كفيلا بهم !

الفصل الثامن

الجـــذور

ليغفر لى الاستاذ هيكل استعارتى عنوان هـــذه الحلقة من كتابه ، وربما كان عذرى أنه هو بدوره قد استعارها من كتاب « اليكس هيلى » المشهور ، وكان موفقا فى استعارتهـــا ، لا لأن الحديث فيها كان يدور حـــول الأصول العائلية الأولى للســـادات فحسب ، بل لأن هذه الأصول العائلية كانت ، فى حالة السادات ، مثلما كانت فى حالة بطل اليكس هيلى ، زنجية افريقية ، كمـــا يحرص هيكل على أن يؤكد ٠

ولكن الحديث عن هذه الأصول العائلية ، اقتصـــادية كانت أم اجتماعية أم لونية ، ليس فى رأيى هو « الجذور » الحقيقية لمأساة حكم السادات ، بل اننى أود هنا أن أتحدث عن « جذور » من نوع آخر ، أهم وأعمق بكثير ، كانت تكمن فيها بذرة التطورات التالية لسياسة السادات ، وأسلوب معالجته للقضايا القومية والوطنيـــة والداخلية ٠ هذه « الجذور » التى حددت ، منذ سنوات حكمـــه الأولى ، اتجاهاته التالية كلها ، هى التى تستحق بالفعل أن تدرس بعمق ٠

يمثل عاما ١٩٧١ و ١٩٧٢ تحـــولا حاسما فى السياســـة المصرية ٠ كان عبد الناصر قد توفى فى العام السابق وترك أمورا

كثيرة معلقة ، تحتمل السير فى أكثر من اتجاه ، وعلى رأسها مبادرة روجرز ، التى كان قد أعلن قبوله لها قبل وفاته بشهور قلائل ، والاستعدادات العسكرى لمعركة العبور ، الذى كان قد بلغ فى ذلك الحين درجة عالية من الاتقان . وعندما تولى السادات الحكم فى أكتوبر ١٩٧٠ ، كان من الطبيعى أن تظل النغمة السائدة ، لفترة ما ، هى السير على طريق عبد الناصر . فلم يكن من الممكن أن يسير الاعلام والدعاية للرئيس الجديد فى أى طريق مخالف ، لأن الاعلان عن استمرار النهج السابق هو أفضل ما يمكن عمله فى مثل هذه الظروف التى يختفى فيها رئيس قوى ذو شهرة واسعة وماض طويل ، ويحل محله خلف لا يزال ، الى حد بعيد ، مجهولا ، ولايزال الناس يشعرون بأن كرسى الحكم كبير عليه .

كانت فكرة « السير على درب عبد الناصر » هى اذن الوحيدة الممكنة فى تلك الفترة الأولى ، مهما كان الاتجاه الحقيقى الذى تسير فيه نوايا الرئيس الجديد وخططه . ولكن بعد حركة مايو ١٩٧١ ، التى تخلص فيها السادات بضربة واحدة من خصومه الذين شكلوا « جناحا آخر » مناوئا له ، طوال الشهور السبعة الأولى من حكمه ، بعد هذه الحركة أصبح للرئيس الجديد من حرية الحركة ما يسمح له بأن يبدأ تطبيق أفكاره الخاصة . ولكن الحكمة كانت تقتضى أن يسير كل شىء بتدرج شديد ، بحيث يبدو فى أول الأمر أن كل شىء سيظل على حاله ، ثم تطرح الأفكار الجديدة بصورة عابرة فى البداية ، لمجرد التمهيد ، وبعد ذلك يبدأ الالحاح تدريجيا على هذه الأفكار الجديدة ، ومن الممكن أن تظل هذه معايشة للأفكار القديمة وقتا ما ، ولكن هذه الأخيرة تذبل شيئا فشيئا ، الى أن يتبلور الاتجاه الجديد ، ويحتل الميدان وحده ، فى نهاية الأمر . كل شىء اذن ينبغى أن يتم ببطء ، وحذر ، وتدرج ، ولكن الهدف واضح ، ومحدد مقدما ، وهو تحويل الاتجاه السياسى فى مصر تحويلا جذريا . ولا بأس من الاستشهاد ، فى عملية التحويل هذه ، بعبد الناصر على الدوام ، وخاصة اذا كان ذلك على صورة حديث

خاص أو أقوال أدلى بها لهذا الشخص أو ذاك ، ما دام الموتى لا يستطيعون التكذيب • فالاستعانة بعبد الناصر فى عملية التحول ضد سياسة عبد الناصر ، هى أسلم الوسائل وأضمنها لتحقيق التغيير المطلوب بهدوء وسلاسة ، بحيث لا يشعر الناس به الا بعد أن يكون قد تم •

فى هذا التحول المخطط ، المرسوم بذكاء وبراعة ، كان من الطبيعى أن يكون للجهاز الاعلامى ، الذى يتربع على قمته هيكل ، دور أساسى : اذ أن الاعلام هو الذى يهيىء عقول الناس للتغيير ، وهو الذى يمهد الطريق للسياسات المرسومة • ولو تتبع المرء خط السير الذى سلكته كتابات هيكل فى هذه الفترة لوجد المخطط المرسوم للتحول ينفذ فيها ببراعة هائلة ، وبتدرج بطىء ولكنه محدد الاتجاه ، ولتبين له أن عملية تهيئة الأذهان للتغيير قد القيت على عاتق هيكل ، الذى اضطلع بها بكفاءة عالية •

فما هو هذا التغيير الذى كان يراد فى السياسة المصرية ؟ كانت هذه السياسة ، فى السنوات الواقعة بين هزيمة ١٩٦٧ وموت عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٧٠ ، تتلخص فى الاعتماد المتزايد على المساعدة السوفيتية ، اقتصاديا وعسكريا بوجه خاص ، ولم يكن هناك مفر ، فى ظروف تلك الفترة ، من سلوك هذا السبيل • ذلك لأن أمريكا كانت ، قبل حرب ٦٧ وبعدها ، قد انحازت كلية لاسرائيل ، وكانت شحنات الأسلحة المرسلة اليها ، والتى زادتها قوة على قوتها الأصلية ، تستهدف منذ ذلك الحين ان تصبح اسرائيل متفوقة عسكريا على الدول العربية مجتمعة • وكان الحل الوحيد هو الاعتماد على الطرف المضاد فى الصراع العالمى من أجل الحصول على أسلحة تعوض التفوق الاسرائيلى • وهكذا خلقت ظروف الفترة نفسها ، والهدف الذى حددته السياسة المصرية لنفسها فيها ، وهو ازالة آثار العدوان ، خلقت وضعا يحتم مواجهة السلاح الأمريكى المتدفق على اسرائيل بسلاح سوفيتى ، دون أن يعنى ذلك ، بأى حال ، انحياز مصر كليا أو جزئيا الى المعسكر

الشيوعي • ولذا شـــاع عندئذ استخدام تعبير « الصداقة » فى وصف العلاقات المصرية السوفيتية ، وتعبير « الاتحاد السوفيتي الصديق » ، وكان ذلك يقتضي فى المقـــابل زيادة حدة اللهجـــة المعادية لأمريكا • ومع ذلك فان السياسة الرسمية لم تغلق أبواب الاتصالات مع امريكا ، بوصفها قوة عظمى ينبغي أن يعمل لهـــا حســـاب ، وان كان الأمـــل فى ممارستهـــا ضغطـــا على اسرائيل من أجل الانسحاب كان فى هذه الفترة شبه مفقود • وفى السنة الأخيرة من حياة عبد الناصر ازداد الحضور السوفيتي فى مصر ، للرد على الغارات الاسرائيلية التى كانت قد توغلت الى أعمـــاق البلاد • وعندما زار عبد الناصر موسكو سرا فى يناير ١٩٧٠ ، كان هو نفسه الذى طلب حضور السوفيت للدفاع عن العمق المصرى عن طريق الصواريخ المضادة للطائرات ، ووافق السوفيت بعـــد تردد ، وكان حضورهم هو الذى أوقف الغارات الاسرائيلية عـــلى الأهداف المدنية فى مصر ، ولولا ذلك لشهدت المدن المصرية تخريبا واسع النطاق •

كانت هناك اذن حاجة حيوية الى وجـــود السـنـــوفيت والى الأسلحة السوفيتية ، يقابلها تصعيد متزايد للهجة العداء ضـــد الولايات المتحـــدة • وعندما اعتلى السادات الحـــكم ، كان من الطبيعى أن يواصل السير ، أول الأمر ، فى هـــذا الطريق ، لا سيما وأن الوجود السوفيتي كان حتى ذلك الحين ضرورة حيوية لحماية الأهداف المدنية فى مصر • ولكن السياسة المرسومة ، فى المدى الطويل ، كانت هى التباعـــد التـــدريجى عن السوفيت ، وطرح فكرة امكان التفاهم مع أمريكا ، ثم الدعـــوة الى الـــكف عن معاداة أمريكا لأن من الممكن « تحييدها » فى الصراع العربى الاسرائيلى • وبالتدريج تتهيأ العقول للنتيجة المطلوبـــة ، أعنى انهاء الوجود السوفيتي فى مصر ، وهو المطلب الأساسى لأمريكا ، بحجة أنه يساعد على عملية « التحييد » هذه • وعندما يطمئن الأمريكيون الى أنهم قد أصبحوا وحدهم فى الساحة ، وهم وحدهم

حلفاء الطرفين المتنازعين ، العربي والاسرائيلي ، عندئذ يمكنهم أن يسيروا بهدوء وثقـة في طريق السيطرة الكاملـة على المنطقة ، وتحقيق الصلح بين الطرفين اللذين أصبحا داخلين في نطاق نفوذ أمريكا بلا منافس .

هذا هو المخطط الشيطـاني الذي رسم لمصر ، وللمنطقـة العربية بأسرها ، بمجرد تولى السادات الحكم ، ولكن لنقـل مرة أخرى ان التدرج الشديد كان جزءا أساسيا من نجاح الخطـة . فليس من السهل أن تظـل تقنع الناس ، سنوات طويلة ، بأن السوفيت أصدقاؤنا والأمريكان ألد أعدائنا ، ثم تنتقل بهم مرة واحدة الى القول بأن السوفيت هم الشياطين والأمريكان يمكن أن يصبحوا أصدقاء ، أو يمكن على الأقل « تحييدهم » . ومن هنا كان من الضروري تنفيذ أهداف هذا المخطط الطويل الأمد خطوة خطوة ، فتوضع الأسس أولا ، ثم تأتي الخطوات التالية واحدة اثر الأخرى . ولما كانت مرحلة الانتقال الأولى هي الأصعب دائما ، فقد كانت تحتاج الى حذر وبراعة من نوع خاص .

وقبل أن نعرض المراحل التي مرت بها هذه الخطة ، دعونا نتأمل تقييم هيكل الأخير ، في « خريف الغضب » وفي غيره من كتاباته القريبة العهد ، لما حدث في هذه المرحلة .

ان هيكل يتحدث بطريقة يصفها بأنها « منصفة » عن دور السلاح السوفيتي في هذه المرحلـة ، فيقول : « في الحقيقـة ، وللانصاف ، فان الاتحاد السوفيتي لم يقصر في معاملة مصر أثنـاء حرب أكتوبر أو بعدها مباشرة . ولا يمكن لأحد أن يتجاهـل - بصرف النظر عما قيل ويقال - ان كل ما تحقق في حـرب أكتوبر تحقق بسلاح سوفيتي . وبعد حرب أكتوبر مباشرة فـان الاتحاد السوفيتي قدم لمصر ٢٥٠ دبابة من طراز « تي يو ٦٢ » هدية ... تعويضا لها عن خسائر الحرب ، كما أنه باع اليها فيما بعد ثلاثة أسراب من طائرات ميج ٢٣ المتطورة . ومـع ذلك فقـد كانت مكافأته هي استبعاده من مؤتمر جنيف في ديسمبر ١٩٧٣ ...

وفى أبريل ١٩٧٤ كان السادات عنيفا فى هجــــومه على الاتحاد السوفيتى بأنه قصر فى التزامه بتعويض مصر عن كل خسائرها فى القتال ، دون أن يشرح الأساس الذى جعله يتصور أن هنـــاك التزاما سوفيتيا بتعويض مصر عن خسائرها » • ثم يجرى هيكـل مقارنة بين ما اشترته مصر من الاتحاد السوفيتى على مدى عشرين عاما (١٩٥٥/٧٥) وقيمته ٢٢٠٠ مليون روبل ، دفعت منهـــا ٥٠٠ مليون روبل وبقى عليها ١٧٠٠ مليون ، ودخلت بهـا مصر خمسة حروب : السويس واليمن وحـرب ٦٧ وحرب الاستنزاف وحرب أكتوبر . أما السلاح الأمريكى فكانت قيمته ٦٦٠٠ مليون دولار فى ست سنوات (٨١/٧٥) لم تدخل بها أى حرب جديدة •

ولنستمع الى شهادة هيكل فى حديث قريب العهد عن أضرار التسلح عن طريق أمريكا : « لقد كانوا (يقصد المملكة العربيـة السعودية) قلقين جدا مما يسمونه الخطر الشيوعى فى المنطقة ، وكانوا يريدون اخراج السوفيت ••• وصحيح أنهم مولوا بعـــد ذلك شراء أسلحة غربية ، ولكنى ممن يعتقـــدون أن الأسلحـة الغربية لا تستطيع أن تدافع ضد اسرائيل • انها تصلح لعمليـــات فى الكونغو أو السودان أو الصومال ، أما اسرائيل فانهـا ستتلقى أمام كل قطعة سلاح أمريكية يحصل عيها العرب ، ما يوازيها ، بل ما يتفوق عليها ويلاشيها »[1] •

هكذا يتحدث هيكل الآن ، وحديثه الحـالى يعبر ، بلا شك ، عن اتجاه وطنى واضح • ومن المهم جدا أن نتذكر تفاصيل كلماته هذه ، لأننا سنعود الآن الى الوراء ونستعـــرض بعض الفصول القديمة ، والهامة ، لقصة علاقات مصر مع المعسكرين الكبيرين ، واتجاهات سياسة التسلح ، كما يرويها هيكل بنفسه فى فترة التحول الذى تحدثنا عنها منذ قليل • وكم أود أن يتنبه القـــارىء الى آراء هيكل فى هذه الفترة الحاسمة ، اذ أن أمورا عظيمة الأهمية كانت تتقرر عندئذ ، وبذور الشجرة التى « أثمرت » فى زيارة

(١) حديث هيكل مع صلاح عيسى ـ جريدة الأهالى ١٩٨٣/٤/٢٧ •

١٩٧٧ ومعاهدة ١٩٧٩ وتحالف حكومة مصر مع أمريكا من أجل خدمة الأهداف الأمريكية في مختلف مناطق العالم الثالث ــ هذه البذور كانت تغرس في تلك الفترة التي سنتحدث عنها ، ببطء ، وذكاء ، وتدرج ، ولكن مع ادراك واضح للهدف البعيد • وسوف أكتفي في معظم الأحيان باقتباسات مباشرة مما كان يكتبه هيكل في ذلك الحين ، مع تعليقات هنا وهناك للكشف عن تسلسل التفكير وتغير اتجاهه . وفي ظني أن أقوال هيكل وحدها تغني عن كل تعليق ، وأن القراءة الذكية لها تكشف للقارىء عن كل شيء •

فلنبدأ بما كان يقوله هيكل في عام ١٩٧٠ • وقد اخترت هذا العام لأنه آخر الأعوام التي كان هيكل يكتب فيها خلال حكم عبد الناصر ، أي أنه كان هنا يعرض آراءه السياسية في الوقت الذي كانت فيه سياسة الدولة الرسمية تؤيد بقوة التسلح من الاتحاد السوفييتي ، وتعتبر الصداقة المصرية السوفييتية عاملا أساسيا في صمود مصر وتمكينها فيما بعد من ازالة آثار العدوان ، بينما تنظر الى الولايات المتحدة على أنها العدو الرئيسي الذي كان أكبر عوامل هزيمتنا في حرب ١٩٦٧ • فكيف كان هيكل يكتب في هذه الفترة ؟

● « ما زالت هناك بين قوى القومية العربية عناصر تنسى اسرائيل لكي تغرق نفسها في حرب مقدسة مع الشيوعية ، بينما الدول الشيوعية هي التي وضعت سلاحها في يد العرب ولولاه لما كان هناك أمامهم بديل عن الاستسلام »(٢) •

● « منذ يونيو ١٩٦٧ ••• فان دور الاتحاد السوفييتي وأثر هذا الدور هو الذي ساعد الأمة العربية على تحقيق ارادتها بالصمود ضد الأمر الواقع الذي حاول تحالف الاستعمار والصهيونية فرضه عليها عسكريا » •

---

(٢) مقال : « الى متى الضباب ؟ » الأهرام ١٦/١/١٩٧٠ •

● « المناورة الأمريكية واضحة أمام أى عربى . فهى تريد عزل العرب عن الاتحاد السوفييتى لا لكى يخرج الصراع العربى الاسرائيلى من نطاق الحرب الباردة بين القوى الكبرى ... ولكن لكى يبقى الطرف العربى تحت رحمة الأمر الواقع الذى يفرضه السلاح الأمريكى الذى تمسك به اسرائيل » .

● « الاتحاد السوفييتى له دور فى الشرق الأوسط بحكم صداقته للعرب ، وهو دور أوجده العرب بأنفسهم قبل أن يوجده الاتحاد السوفييتى لنفسه ـ ردا على دور الولايات المتحدة وارتباطها باسرائيل »(٣) .

● « دور الاتحاد السوفييتى الكبير والخطير ليس فقط فى اعادة تسليح الجيش المصرى ولكن أيضا فى ارسال المئات من خبرائه للمشاركة فى اعداد الجيش المصرى للقتال على مستوى الحرب الحديثة . وهو بهذا يسجل سابقة جديدة فى التاريخ ، لأن الاتحاد السوفييتى بهذه السابقة كان أول بلد أوروبى يبعث بالعسكريين من أبنائه الى أرض آسيوية وافريقية ، لا لكى يسيطروا ويستعمروا .. ولكن لكى يساعدوا هذه الأرض ... على محاربة السيطرة والاستعمار » .

« لماذا يتخذ الاتحاد السوفييتى هذا الموقف المؤيد لنا ؟ الرد : أن الأمر بالنسبة للاتحاد السوفييتى مسألة مبدأ ، وهو عداء الاستعمار »(٤) .

أما عن أمريكا فيقول هيكل فى هذه الفترة نفسها :

● « ان الولايات المتحدة صرحت لاسرائيل باستخدام طائرات الفانتوم فى غارات بالعمق ضد الأراضى المصرية ، ولم تكن اسرائيل تستطيع أن تفعل ذلك الا بتصريح أمريكى واضح »(٥) .

---

(٣) الاقتباسات الثلاثة السابقة من مقال «أزمة الشرق الأوسط » ١٩٧٠/٣/٢٠

(٤) « ما هو الاختلاف والخلاف ؟ » ١٩٧٠/٨/١٤ .

(٥) « المسألة يوم القادمة » ـ ١٩٧٠/٢/١٣ . ويلاحظ ان « المانشيت » الرئيسى لهذا العدد كان حول غارة اسرائيل على مصنع أبو زعبل ، حيث قتل وجرح عدد كبير من العمال ، وكان العنوان « الجريمة الاسرائيلية الأمريكية » .

● « ان العلاقة بين اسرائيل والولايات المتحدة وصلت الآن الى الحد الذى لم تعد فيه السياسة الأمريكية قادرة على أن تظهر أو تمارس أى قدر من الاستقلال عن الارادة الاسرائيلية »(٦) .

● ويشير الى موقف أمريكا فيصفه بأنه « التعهد باستمرار تفوق اسرائيل فى قوة النيران على كل ما لدى العرب مجتمعين من قوة النيران »(٧) .

● « ان السياسة الأمريكية الممعنة فى عدائها للعرب ، والممعنة فى تحيزها لاسرائيل ، استمرت على مدى عهدين (جونسون ونيكسون) من سنة ١٩٦٧ حتى الآن ... ومعنى ذلك ان هناك تخطيطا أعلى من أن تغيره اختلافات العهود أو الأحزاب أو الرئاسات » . ثم يقتبس هيكل فى المقال نفسه أقوالا ويشير الى أحداث تحيزت فيها أمريكا ضد العرب بوضوح ، ويعلق على ذلك قائلا ان هذه الوقائع « تستطيع أن ترد على دعوى السياسة الأمريكية المتوازنة »(٨) .

● ويحدد هيكل أهداف أمريكا فى المنطقة فيقول فى نص هام « ماذا تريد الولايات المتحدة من الشرق الأوسط ؟ » ..

« **أولا** : اخراج الاتحاد السوفييتى من المنطقة ، مع تجنب المواجهة المباشرة معه فى نفس الوقت » .

« **ثانيا** : الاحتفاظ باسرائيل قوية فى الشرق الأوسط ، قادرة على القيام بدور حارس المصالح الأمريكية فى المنطقة » .

« **ثالثا** : ابقاء العالم العربى فى حالة من الضعف يسهل معها على الولايات المتحدة تأمين مصالحها » .

« **رابعا** : تحديد دور مصر فى المنطقة ، أو بعبارة أوضح حصار دور مصر » ..

« هذا هو مجمل مطالب الولايات المتحدة فى منطقة الشرق

---

(٦) « السياسة الأمريكية والارادة الاسرائيلية » ـ ١٩٧٠/٢/٢٠ .
(٧) « المسدس .. وفى يد من هو ؟ » ـ ١٩٧٠/٣/٦ .
(٨) « رسائل على الطبول الأفريقية » ـ ١٩٧٠/٣/١٣ .

الأوسط ... فى عالم السبعينات » •

ثم يذكر هيكل القراء بعبارة هامة قالها كيسنجر : « اننا يجب أن نطرد expel الاتحاد السوفييتى من منطقة الشرق الأوسط بكل الطرق والوسائل » ويعلق عليها بقوله : « ومن المهم لنا جدا أن نتذكر ذلك ، وأن لا يغيب عنا معناه »(٩) •

هذا ما كان يقوله عن السوفييت وأمريكا فى الأشهر الأخيرة من حياة عبد الناصر ، ومن المهم أن نؤكد المعانى الرئيسية التى كان يدعو اليها عندئذ : لا غناء لنا عن الاتحاد السوفييتى فى التسلح ـ صداقة السوفييت مسألة مبدأ ، لا مسألة مصالح ـ العرب ، ومصر بالذات ، هم الذين طلبوا التواجد السوفيتى ، الذى لم يفدهم فى التسليح فقط ، بل فى التنمية أيضا ـ أمريكا تحرص على بقاء اسرائيل أقوى من العرب أجمعين ـ الارادة الأمريكية أصبحت عاجزة عن الاستقلال عن الارادة الاسرائيلية ـ عداء أمريكا للعرب هدف دائم ، يتجاوز العهود والرئاسات ـ سياسة التوازن بين العرب واسرائيل هى ، فى نظر أمريكا ، خرافة ـ أول أهداف أمريكا هو اخراج السوفييت من المنطقة ، ثم تقوية اسرائيل واضعاف العرب ، ثم حصار مصر وعزلها عن العرب ، وهذه الأهداف ليست مرحلية بل هى أهداف السبعينات كلها •

•

فلنتأمل بعد ذلك ما قاله هيكل فى السنتين الأوليين من عهد السادات : ولنتذكر ما قلناه من قبل ، من أن الخطة ـ خطة التحول الحاسم ـ ينبغى أن تكون شديدة التدرج : فهناك شعب مهيأ ذهنيا لأفكار كتلك التى لخصناها من قبل ، وهناك تسلح لا يمكن الاستغناء عنه بين يوم وليلة ، وهناك اقتصاد كان لا يزال مرتبطا بالمساعدات السوفييتية الى حد بعيد • لذلك كان من

---

(٩) « أمريكا .. نظرتها الى الأزمة وأسلوبها » ـ ١٩٧٠/٩/١١ •

الطبيعي ألا تنكشف الأوراق مرة واحدة . فبعد حركة التصحيح في مايو ١٩٧١ مباشرة ، كان المطلوب هو تفنيد حجة الجناح الذي كان معاديا للسادات ، والذي عبر عنه الفريق فوزي بقوله ان السادات « يبيع البلد للأمريكان » ، ولذلك كان من الضروري الاستمرار في الضرب على النغمة السابقة ، النغمة الناصرية ، بعض الوقت ، لا سيما وأن السوفييت بدأوا ينزعجون .. وهكذا كتب هيكل يقول : « أقول بأمانة وصراحة أنه لولا الاتحاد السوفييتي لما كان أمامنا خيار غير القبول بشروط المنتصرين كما حدث سنة ١٩٤٨ . وقيمة الصداقة العربية السوفييتية أنها ليست صداقة ظروف . أى أنها ليست صداقة تكتيكية ، وانما هي - كما كان يقول جمال عبد الناصر - صداقة نضال ضمن الجبهة العالمية المعادية للاستعمار ، ونضال من أجل الحرية والتقدم .. وانصافا للاتحاد السوفييتي فان تعامله مع جمال عبد الناصر ومع أنور السادات بعده كان تعامل الشرفاء . ومن الحق أن يقال أنه لا يمكن أن يكون هناك مصري يحترم مصريته أو عربي يحترم عروبته الا ووجد نفسه صديقا للاتحاد السوفييتي »(١٠) .

الرسالة التي يريد هيكل أن ينقلها الى السوفييت هنا هي : اطمئنوا ... لقد قضينا على أولئك الذين كانوا يزعمون أنهم أنصاركم ، ولكننا ما زلنا أصدقاء بقوة .

ولكن مخاوف السوفييت أخذت تزداد بعد الدور الأساسي الذي لعبته القوات المصرية في احباط انقلاب هاشم عطا (اليساري) في السودان ، ولذلك يحاول هيكل طمأنة مخاوفهم (لأن الوقت لا يزال مبكرا للتخلص منهم) ، فيبدأ مقاله بقوله : « لا يمكن لأحد أن يتهمني بممالأة الاتحاد السوفيتي ، بل ان عناصر من داخل الاتحاد السوفييتي أو موالية له بالفعل أو بالادعاء

---

(١٠) « ماذا أقول » - ١٩٧١/٥/٢١ .

رمتني مرات بممالأة أمريكا لأنني طالبت بعدم التصادم والتناطح معها بالقوة.» « لان همس عناصر السلطة (يقصد الجناح الناصرى الآخر) ولأهداف صراعهم من أجلها أن أنور السادات قد عقد صفقة لحل الأزمة من وراء ظهر الاتحاد السوفييتي ... حتى توحى للاتحاد السوفييتي بأن أنور السادات يستعمله كورقة فى لعبة وليس صديقا فى نضال »(١١) .

ورغم محاولة الترضية الواضحة ، فان هذا الاقتباس يهمنا فى أمرين :

الأول هو وجود تلميح الى موقف جديد من أمريكا تعرض هيكل بسببه للوم من بعض الجهات ، وان كان هيكل لا يزال يؤكد ، حتى ذلك الحين ، أن كل شىء على ما هو عليه .

والثانى هو وصف هيكل للسادات فى عام ١٩٧١ بأنه صديق للسوفييت فى النضال ــ نفس السادات الذى عرض علينا هيكل فى « خريف الغضب » تفاصيل عن ماضيه مع أجهزة المخابرات المختلفة المتصلة بالأمريكيين اتصالا مباشرا أو غير مباشر .

ثم تزداد التلميحات وضوحا بالتدريج ، مع الاحتفاظ بالموقف القديم (مؤقتا) . فهو فى هذه المرحلة لا يزال يؤكد أن « الهدف الأكبر الذى تسعى اليه اسرائيل والولايات المتحدة هو اخراج العامل السوفيتى كله تأثيرا وتواجدا فى أزمة الشرق الأوسط ، لأن هذا العامل هو أهم القوى الضاغطة ، واذا لم ندرك ذلك ، واذا لم نعمل على مواجهته ــ اذن فنحن نقدم للعدو مطلبه على طبق من فضة »(١٢) . ومع ذلك فان فى المقال نفسه اشارات واضحة الى أن من الممكن أن يتوقف امداد أمريكا لاسرائيل بالسلاح ، لو أن العرب لعبوا لعبة التوازنات

---

(١١) « مرة اخرى : العلاقات العربية السوفييتية » ــ ١٩٧١/٨/٢٧ .

(١٢) « شهور مضت . وشهور قادمة » ــ ١٩٧١/٦/٢٥ .

والحسابات ، والعقبة الرئيسية في وجه هذه الخطوة ، من وجهة نظر أمريكا ، هي التواجد السوفييتي • وهكذا ننتقل الى موقف جديد ، فبعد أن كان الموقف السابق هو : لا أمل من أمريكا ، أصبح الآن : هناك أمل ، بشرط أن نعرف قواعد اللعبة •

وفي الوقت ذاته كانت فكرة « تحييد أمريكا » قد بدأت تظهر في كتابات هيكل منذ أوائل عام ١٩٧١ ، أي بعد حوالى أربعة أشهر من تولى السادات السلطة • فهو يتحدث - في فبراير من هذا العام - عن ضرورة الاقتداء باسرائيل في تحقيق أهدافها خطوة خطوة ، بحيث يكون هدفنا الحالى هو ازالة آثار العدوان ، ثم يعلق على ذلك بقوله : « ومن المحتمل أيضا ، وبجهد متواصل وعاقل ، أن الولايات المتحدة يمكن تحييدها بشكل ما ولو جزئيا أثناء تحقيقه ، وان كان ذلك متداخلا فى أوضاع وظروف قد تقتضى شرحا أوسع »(١٣) • وفى المقال التالى يزيد فكرته ايضاحا فيقول : « اذا أردنا ان نصل بنتيجة ما حدث سنة ١٩٦٧ الى نجاح يماثل نجاحنا سنة ١٩٥٦ فاننا يجب ان نحصل على عنصرين : أولهما تأييد احدى القوتين العظميين ، وذلك متاح لنا بتعاطف وصداقة وتأييد الاتحاد السوفيتى • والثانى تحييد القوة العظمى الأخرى ، وهى الولايات المتحدة ، أو على الأقل منع تدخلها ضد مصلحتنا فى الازمة ، وغير ذلك مستحيل »(١٤) • ثم يأتي بعد ذلك كلام أخطر : « من هنا فلقد كنت ، وما زلت ، اختلف مع النغمة التي تقول ان الذى نواجهه أمامنا فى ميدان القتال هو الولايات المتحدة وليس اسرائيل (لاحظ أنه كان يقول بعكس ذلك تماما منذ عام) • والصحيح أن بيننا وبين الولايات المتحدة مواجهة سياسية ، أو صراعا سياسيا ، وهدف هذا الصراع هو الفصل بين اسرائيل والولايات المتحدة كحد أقصى ، أو تحييد الموقف الامريكى تجاه اسرائيل كحد أدنى ، وذلك عن طريق توجيه ضغط دولى وعربى

---

(١٣) « عن الاقتناع بامكانية تحقيق هدف » - ١٩٧١/٢/٢٦ •

(١٤) « التضاريس فى الطبيعة وفى السياسة » - ١٩٧١/٣/٥ •

ومصرى ضد الولايات المتحدة ... هذا الضغط ... يقنع الولايات المتحدة .. بأنها تواجه تقلصا مخيفا فى هيبتها كقوة عظمى ، والهيبة على رءوس الدول العظمى كالتيجان القديمة على رءوس القياصرة » .
وبعد قليل يحدد الهدف من صراعنا مع الولايات المتحدة ، بأنـــه « ليس هزيمتها فى ميدان القتال ، وانما اخراجها ، وبكل وسيلة ، من ميدان القتال » . « وأقول اننى استطيع ان أجد طريقا يقدر به الشعب المصرى ان يحارب اسرائيل ويهزمها .. ولكن ذلك يتطلب ان تكون الولايات المتحدة بعيدة عن ميدان القتال » .

ان تصعيد لهجة « تحييد أمريكا » كان يزداد طـوال عـام ١٩٧١ ، وكانت المغالطة التى ارتكبها هيكل مزدوجة : فبعـد أن كان أيام عبد الناصر يربط بين أمريكا واسرائيل بحيث يستحيـل فصلهما ، وبعد أن كان يؤكد أن هدف أمريكا الدائم والاستراتيجى هو اضعاف العرب من أجل هدمهم ، أصبح الآن يقدم الى القارىء ، فى جرعات خفيفة أول الأمر ، ثم تزداد كميتها بالتدريج ـ فكـرة امكان تحييد أمريكا وايقاف فاعليتها فى مؤازرة اسرائيل ، بل ويرى ان الحرب بدون ذلك مستحيلة . ولكن اذا ادركنا مدى استراتيجية التحالف بين أمريكا واسرائيل ، واذا اذركنا أن أمريكا لا بد ان تعمل ما من شأنه منع العرب ، بشتى الطرق ، من أن يكتسبوا القـدرة اللازمة لممارسة الضغط عليها ، لوجـدنا الى أى حد تؤدى « وصفة » هيكل الجديدة « لهزيمة » اسرائيل الى طريق مسدود .

والى هذه الفترة ينتمى مقال « تحية للرجال » المشهور (١٢ مارس ١٩٧١) الذى بالغ فيه هيكل ، وكأنه جنرال خبير فى ميدان القتال ، فى وصف الصعوبات المميتة التى سيصادفها الجيش المصرى لو حاول عبور قناة السويس التى هى أخطر مانع مائى فى العالم ، وتحدث عن القوة الهائلة للجيش والطيران الاسرائيليين ، وكيف ان العبور يجعل جيشنا « يواجه ما لم يواجهه جيش من قبل » . ولم تكن عملية التخويف هذه الا جزءا من السياسة الجديدة ، فلم يكن من المستغرب اذن أن يثور عليه انصار السياسة الناصرية السابقة ثورة

عارمة .

ولنختتم هذا العرض لفكرة التحييد بعبارات تظهر فيها اتجاهات هيكل الجديدة ، التي استدارت بزاوية ١٨٠ درجة عن اتجاهاته منذ عام واحد ، بوضوح كامل : « اذا كانت اسرائيل قد انتصرت على العرب فى معارك بفعل التأييد الأمريكي فان هذا التأييد الأمريكى ليس دائما ، وانما الدائم هو المصالح الأمريكية فقط .. ومن هنا فان التأييد الأمريكى ليس سلاحا أبديا فى يد اسرائيل ، وهذه عبرة الأيام »(١٥) .

وفى العام التالى حدثت الخطوة الحاسمة ، التى ظهرت فيها معالم السياسة الجديدة بلا مواربة ، والتى تعد الكتابات السابقة تمهيدا متدرجا لها ، وأعنى بها طرد الخبراء السوفييت من مصر فى يوليو ١٩٧٢ . هنا نود أن نذكر القارىء بالاقتباسات التى تعمدنا أن نكررها من قبل ، والتى تبين ان هيكل كان واعيا تماما بأن طرد الخبراء السوفيت هو هدف السياسة الأمريكية فى المنطقة وبأننا اذا لم نواجه ذلك فكأننا «نقدم للعدو مطلبه على طبق من فضة» .ولكنه، فى ظل السياسة الجديدة ، لا يجد أية غضاضة فى أن يحمل طبق الفضة بيديه، ويبتلع كلماته ومواقفه السابقة بسهولة تامة ،ويساعد « العدو » على تحقيق مطلبه بكل ما يملك من قدرة وموهبة ، فحين خرج السوفيت بالفعل ، لم يقل لنا هيكل كلمة واحدة عن تأثير ذلك على الولايات المتحدة ايجابيا ، ولم تصدر عنه كلمة واحدة يقول فيها اننا كنا نستطيع استثمار هذا الطرد لصالحنا ، كما أصبح يقول فى أيامنا هذه ، ولم يوجه كلمة نقد واحدة ، بل انه ، على العكس من ذلك ، اخترع قصة اعتقاد الاتحاد السوفيتى بوجود فراغ عقائدى فى المنطقة ، واستعرض ، بلا مناسبة ، ولمجرد التحرش بالخصوم الجدد وتبرير سياسة السادات الجديدة ، تاريخ الخلافات العقائدية مع السوفيت منذ الستينات ، وكلها أمور حشرت حشرا بصورة ملفقة ،

---

(١٥) « العام الحاسم ومركز السادات » - ١٩٧١/١١/٧ .

اذ أن هذه الخلافات لم تمنعه ، أيام عبد الناصر ، من امتداح السوفيت المبالغ فيه . والأخطر من ذلك أن هيكل يذيع سرا (يؤكد أنه لم يكن سرا ، وان كان معظم الناس لم يعرفوه الا عن طريقه) هو أن خمس طائرات سوفيتية كانت قد سقطت في يوم واحد ، هو ١٨ ابريل ١٩٧٠(١٦) . وكان الهدف من هذا الاعلان ، الذى بلغ قمة التنكر لتلك « الأفضال » التى كان يسبح بحمدها من قبل ، هو التشكيك فى قدرة الطيارين السوفيت ، ولا مانع لديه من تحطيم معنويات جيشه وأبناء وطنه عن طريق اعلان تفوق اسرائيل الى هذا الحد حتى على السوفييت .

ويكمل هيكل حملته على السوفيت ، الذين كان يتغزل فيهم قبل أقل من عامين ، والذين يدعونا الى الندم على فقداننا لصداقتهم فى أيامنا هذه ، فينشر وثيقة « سرية » (لا أدرى من أين حصل عليها ، وأتمنى أن يثبت لنا فى هذه الأيام ان كانت صحيحة أم ملفقة) هى تقرير لجنة داخل الحزب الشيوعى السوفيتى عن برنامج الحزب الشيوعي السورى ، وفى التقرير تشكيك فى القومية العربية وامكانية الحل العسكرى أو قيام الدولة الفلسطينية . ولا ينسى هيكل ان يقلل من قيمة السلاح السوفيتى ، مؤكدا انه « كان متأخرا عن الولايات المتحدة فى هذا المضمار سبع سنوات »(١٧) .

ومن اللافت للنظر أن هيكل قد استخدم ، فى هذه الحملة على السوفيت ، نغمة أصبح السادات فيما بعد يستخدمها على أوسع نطاق لاثارة مشاعر الشعب المصرى ضد بقية الشعوب العربية عندما حدثت المقاطعة بعد زيارة القدس ، وأعنى بها نغمة « مصر أولا » . فخروج السوفيت « حرك نبض الوطنية المصرية .. ووضعها فى موضع الاعتماد على النفس »(١٨) .

نفس خروج السوفيت الذى كان منذ قليل يوصف بأنه مطلب

---

(١٦) « الحوار المطلوب والضرورى » – ١٩٧٢/٨/١١ .
(١٧) « فى موسكو أيضا : وقفة موضوعية مع صديق » – ١٩٧٢/٨/١٨ .
(١٨) انظر الهامش رقم (١٦) .

العدو ، وهدف السياسة الأمريكية الأول .. وهو فى موضع آخر يتحدث عن خطأ السوفيت لأنهم « لم يدركوا قيمة مصر الحضارية ، ولم يدركوا أن مصر هى مصر ، وسوف تبقى دائما مصر »(١٩) .

كان التحول قد اكتمل وكانت الحلقة قد اغلقت بإحكام ، وتحول الصديق الذى وصف قبل ذلك بأنه تعامل مع عبد الناصر والسادات معاملة الشرفاء ، والذى « لا يوجد مصرى يحترم مصريته ، ولا عربى يحترم عروبته الا وكان صديقا له » - تحول الى عدو لحضارة مصر ، وأصبح خروجه علامة على الوطنية ..

وعندما وصل هيكل فى كتابته الى هذه المرحلة ، استأذن القارىء ليأخذ أجازة لمدة شهر من الكتابة(٢٠) ..

كان مدركا انه أكمل مهمته ، وذهب ليستريح .

والآن ، دعونا نلق نظرة هادئة على تلك الكلمة ذات المظهر البرىء ، التى كانت الخطة المتدرجة ، الشديدة الحذر والذكاء ، تستهدف اقناع الأذهان بها ، واعنى بها كلمة « تحييد أمريكا » . هذه الكلمة تلخص هدف السياسة الجديدة كلها : فبينما كان هيكل يؤكد ، فى ظل سياسة عبد الناصر ، أن أمريكا لا تقل عداء لنا عن اسرائيل ، وأن مصالحهما مرتبطة ارتباطا عضويا يستحيل تفكيكه ، وأن الأمور وصلت الى حد أن الارادة الأمريكية أصبحت عاجزة عن الاستقلال عن الارادة الاسرائيلية ، وان دفاع أمريكا عن اسرائيل وسعيها الى اضعاف الدول العربية انما هو سياسة دائمة وليس على الاطلاق وضعا مؤقتا - بينما كان هيكل يؤكد ذلك كله ، أصبح فى عام ١٩٧٢ يركز جهوده على طرح هذا المفهوم الجديد ، الذى يتناقض كلية مع المفاهيم السابقة ، واعنى به مفهوم « التحييد » ، ويعنى به كف يد أمريكا عن التدخل لصالح اسرائيل ضد العرب . فلنحلل

---

(١٩) انظر الهامش رقم (١٧) .

(٢٠) فى مقال ١٨ اغسطس ١٩٧٢ .

اذن هذا المفهوم ، ونستخلص نتائجه ٠

ان لعملية التحييد هذه وسيلتين :

الأولى هي تنمية القوة الذاتية العربية ، اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، الى الحد الذى تضطر فيه أمريكا الى أن تعمل حسابا لقوتنا ، وخاصة حين تصل هذه القوة الى حد تهديد المصالح الأمريكية فى المنطقة ٠ فكيف تتحقق لنا مثل هذه القوة ؟ من الواضح انها ، لكى تصل الى الحد الذى تشكل فيه تهديدا حقيقيا ، وليس مجرد تهديد مظهرى أو مؤقت ، لمصالح أمريكا ، تحتاج الى تغيير شامل فى نمط الحياة فى العالم العربى وفى أساليب حكمه ٠ ولو وصلنا بالفعل الى مثل هذا التغيير ، فلن نكون عندئذ بحاجة الى تحييد أمريكا ، لأننا عندئذ نستطيع أن ننتزع حقوقنا بأيدينا ، شاءت أمريكا أم أبت ٠ وأبلغ دليل على ضخامة حجم التغيير ، السياسى والاقتصادى والعسكرى ، المطلوب تحقيقه فى مجتمعاتنا من أجل الوصول الى تحييد أمريكا ، ان هذا التحييد لم يتحقق حتى عندما وصل التضامن العربى ، عسكريا واقتصاديا ، الى مستوى عال لم يبلغه فى أى وقت من قبل ، فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ٠ فقد زادت أمريكا من مساعداتها لاسرائيل أثناء الحرب ، وقدمت اليها أضخم جسر جوى من معدات القتال عرفه التاريخ ، مما اتاح لها قلب ميزان الحرب جزئيا لصالحها ٠ واذن فطريق القوة الذاتية العربية المطلوب من أجل التحييد طويل جدا ، ولو بلغناه يوما ما لما أصبح للتحييد عندئذ أى داع ٠

أما الطريق الآخر ، فهو الطريق العكسى ، أعنى طريق الأذعان لمطالب أمريكا وتقديم الخدمات والتسهيلات لها ، وتحقيق مصالحها فى المنطقة الى الحد الذى يأمل أصحاب هذا الطريق أن يؤدى الى تخفيف انحيازها لاسرائيل ، ما دام هناك أصدقاء جدد يؤدون وظيفة اسرائيل التقليدية ، وهى حماية المصالح الامريكية ٠ هذا الطريق اذن لا يكمن فى تهديد مصالح أمريكا ، بل فى التنافس مع اسرائيل على حماية هذه المصالح ٠ ونظرا الى أن الطريق السابق طويل وشاق ،

ويفترض شروطا يحتاج تحققها الى ثورة كاملة لو حدثت لما عدنا نحتاج الى هذا التحييد ، فان نوع التحييد الذى يمكن تنفيذه عمليا ، فى ظروف العالم العربى الراهنة ، هو النوع الثانى ، أعنى التحييد الاستسلامى • ولهذا التحييد دائما ثمن فادح • فما الذى يدفع أمريكا الى الامتناع عن مساندة اسرائيل أو التخفيف من انحيازها لها ؟ ان اسرائيل حليف قوى ، يحقق لها مصالح ضخمة : ردع قوى التحرر فى العالم العربى ، ضمان تدفق النفط للغرب ، ضد « الخطر الشيوعى »• وعلى ذلك فالمطلوب منا أن نقوم نحن بأداء هذه الخدمات كلها لأمريكا ، حتى تدرك أن مصالحها لا تتحقق على يد اسرائيل وحدها ، لاسيما وان لدينا مزايا خاصة ، هى اتساع الرقعة جغرافيا ، واستراتيجية الموقع ، والموارد البشرية والمادية الكبيرة •

هذه هى النظرية التى تبنتها المدرسة الساداتية ، عمليا ، وكانت أولى خطواتها هى طرد الخبراء السوفيت ارضاء لأمريكا • وتلتها خطوات أخرى : منح القواعد أو التسهيلات العسكرية ، المشاركة فى بعض الحروب الصغيرة لصالح الغرب (زائير والصومال وتشاد وافغانستان وغيرها) ، تغيير اتجاه الاقتصاد بحيث يصبح رهينة للبنوك الأمريكية والدولية ، وتأكيد دور القطاع الخاص مع الاقلال من أهمية القطاع العام ، الخ ••

وهكذا يؤدى الجرى وراء سراب « التحييد » الى أن يصبح العرب أشبه « بالزوجة الثانية » للزوج الغنى والقوى : أمريكا • وككل زوجة ثانية ، يتعين على العرب أن يتفننوا فى ارضاء أمريكا واغرائها بالتنازلات حتى تنصرف عن الزوجة الأولى (اسرائيل) • ومع كل ذلك فان اسرائيل القوية ، التى يتسم نظامها بالثبات ، ولا يتصف بتقلبات الأنظمة العربية ومزاجيتها ، والتى تشارك أمريكا « ديمقراطيتها » واعتمادها على مؤسسات ثابتة ، لا على أهواء شخصية ـ اسرائيل هذه هى التى تكسب « الزوج » فى النهاية ، بعد أن تكون الزوجة الثانية قد أعطت أعز ما تملك !

هذه هي النتيجة التي توصل اليها سياسة « التحييد » عمليا • وقد اختبرت هذه السياسة ، كما قلت ، في حرب أكتوبر ، فكانت النتيجة مزيدا من التدخل الأمريكي لصالح اسرائيل ، مما جعل السادات نفسه يقول : أوقفت القتال لأنني لا أستطيع ان احارب أمريكا ! ولكن المأساة هي أن نفس اللحظة التي بلغ فيها تدخل أمريكا لصالح اسرائيل ذروته ، كانت هي اللحظة التي بلغ فيها هيام أصحاب سياسة « التحييد » بأمريكا أعلى قممه • ومنذ أن بذلت أمريكا أكبر جهد تملكه من أجل تزويد اسرائيل بأضخم كمية من الأسلحة لكي تقتل بها أبناءنا وتحتل أراضينا ، أصبحت هي الصديق ، ثم الحليف والوليف !

في كلتا الحالتين اذن ، وسواء وصلنا الى التحييد عن طريق القوة الذاتية أم عن طريق الاستسلام ، تنتهي سياسة التحييد الى نتائج مناقضة لذاتها ، وتلغي نفسها بنفسها •

ولنتأمل بعد ذلك نتائج هذه السياسة الجديدة التي نفذت بتخطيط بارع ، بالنسبة الى حرب أكتوبر •

ان هناك جدلا ضخما ، يثيره هيكل في هذه الأيام ، حول الادارة السياسية لحرب أكتوبر ، ويرى فيه أن هذه الحرب ، التي حققنا فيها انجازا عسكريا جيدا بجميع المقاييس ، لم تكن نتائجها السياسية على مستوى الأداء العسكري فيها على الاطلاق • والنقطة الأساسية التي يثيرها هيكل في هذه الأيام هي انه كان من الممكن تطوير الحرب حتى الممرات على الأقل منذ الأيام الأولى ، مما يعطينا مركزا تفاوضيا أقوى بكثير • وفضلا عن ذلك فقد كشفنا أوراقنا للعدو في مراسلات سرية دارت منذ اليوم الثاني للحرب ، اعترفنا فيها بأن هدفنا من الحرب محدود ، وبأننا لن نعمق الصراع أو نوسع جبهاته ، مما أتاح لأمريكا ، ولهنري كيسنجر بوجه خاص ، فرصة معرفة خطتنا النهائية مقدما

واستغلالها لصالح اسرائيل(٢١) ٠

وفى تصورى ان الجدل حول هذا الموضوع كله ، بالصورة التى طرحها هيكل، جدل عقيم ٠ ذلك لأن هيكل يفترض ان كيسنجر لم يعرف النوايا المصرية من الحرب ، الا عن طريق تلك المراسلات السرية ، ومن هنا فانه يوجه اللوم الى من كتبها والى من أعطى الأمر بكتابتها ، على حين أن كاتبها يدافع عن نفسه بحرارة ضد اتهامات هيكل بشأن هذه المراسلات ٠ وحقيقة الأمر ان أمريكا تعرف نوايا الحرب المصرية منذ أمد بعيد ٠ فهناك عوامل كثيرة كانت كلها كافية لمعرفة هذه النوايا : منها مثلا الصراع بين هيكل والجناح الآخر من الناصريين حول طبيعة الحرب المنتظرة ، ومنها الاتجاه الكامل للدبلوماسية المصرية فى عهد السادات خلال السنوات السابقة للحرب ، ومنها طرد الخبراء السوفيت والسعى الى مزيد من التقارب والتفاهم مع أمريكا ٠ كل هذه التطورات لم تكن تؤدى بأى حال الى قيام حرب تحرير شاملة ٠

ولكن ، لندع الاستنتاجات جانبا ، ولنستمع الى الأقوال الصريحة والمباشرة ٠ فطوال شهور فبراير ومارس وابريل ١٩٧٢ ، كانت كتابات هيكل تركز على « الحل السياسى الذى تسانده قوة عسكرية ــ لا الحل الدبلوماسى فقط ، ولا الحل العسكرى المطلق » ٠ « لا بد أن نفهم ان الولايات المتحدة لن تتحرك ــ اذا تحركت ــ الا تحت ضغط ، والا فماذا يدفعها الى الحركة ؟ القوة العسكرية ، نعم ، ولكن ٠٠ وفقا لموازين العصر وفى اطار سياسى شامل »(٢٢) ٠

هكذا كان تصور هيكل للحرب هو أن هدفها التحريك ، وتحريك من ؟ الولايات المتحدة بالذات ٠ ولماذا نبحث عن تحريك الولايات المتحدة ، وليس أية دولة أخرى ، كهدف للحرب ؟ ألا يفترض هذا أن أمريكا تملك كل ، أو معظم ، أوراق اللعبة ؟ هكذا

(٢١) انظر أحاديث هيكل فى « الأهالى » خلال شهرى مايو ويونيو ١٩٨٣ ٠

(٢٢) « سيادة العقل » ــ ١٩٧٢/٣/١٧ ٠

يدل كلام هيكل بوضوح على أنه يشارك فى الموقف الرئيسى لسياسة السادات فى ادارة الصراع العربى الاسرائيلى ٠

ولنستمع الى كلمات أصرح : « الحرب المسموح بها الآن هى استعمال القوة المسلحة لهدف تتوفر له الشرعية الدولية ٠٠ ويتوفر للطرف الذى سيحمل السلاح لتحقيق هذا الهدف تأييد احـــدى القوتين الأعظم على الأقل ، ثم يتوفر لهذا الطرف بقوته الذاتية وبما يتلقاه من أصدقائه طاقة لا شك فيها لتحقيق هذا الهدف فى اطار محدد أو محدود ٠ ثم يكون القصد من تحقيقه هو التأثير فى الوضع السياسى ٠ معنى ذلك انها حرب محدودة ٠٠ محدودة الهدف »(٢٣) ٠

هل هناك ما هو أوضح من هذه العبارات فى الدلالة على أن هـدف الحرب المحدودة ، لا الحرب الشاملة ، كان مرسوما مقدما ، وان هيكل كان مشاركا فى التخطيط لهذا الهدف والترويج له ؟

ومع ذلك ، فهناك ما هو أصرح حتى من هذا الكلام : « ليكن أن مصر تشعر أن طاقتها تحتمل أن تحرر بالقوة المسلحة ولو مائة كيلو متر مربع فقط من أراضيها ٠٠ واذا كانت مصر دقيقـــة فى حساباتها ، فانها سوف تنجح فى تحقيق ما تريد ، وسوف تحرر بالفعل هذه المائة كيلو متر مربع من أراضيها ، وسوف تحتفظ بها فى وجه أية هجمات مضادة من العدو ٠٠ وهذا يغير صورة الأزمة كلهـــا ، ويفتح البـــاب لتطـــورات مباشرة أخـــرى فى مجرى الصراع »(٢٤) ٠

تأمل معى ، أيها القارىء ، هذا الكلام الواضح ، وتأمل من جهة أخرى تلك الضجة الكبرى التى يثيرها هيكل فى هذه الأيام ، بعد عشر سنوات من الحرب ، وبعد أن نسى الناس ما قاله فى الفترة الممهدة للحرب ــ أعنى الضجة التى أقام بها الدنيا وأقعدها حـول ما يسميه « بالعبارة الكارثة » الواردة فى رسالة سرية من حـــافظ اسماعيل ، مستشار الأمن القومى المصرى ، الى كيسنجر ، نظـيره

---

(٢٣) « نوع الحرب الممكنة ، والضرورية » ــ ١٩٧٢/٣/٢٤ ٠

(٢٤) المقال السابق نفسه ٠

الأمريكى . وتحدث فيها اسماعيل عن نوايا مصر فى جعل الحرب محدودة وعدم توسيع جبهاتها أو تعميق مسارها .. ألم يقل هيكل أكثر من هذا قبل وقوع الحرب ، فى مقالات علنية لا فى مذكرات سرية ؟ هل كانت أمريكا مضطرة الى انتظار الرسالة السرية حتى تعرف نوايا مصر فى الحرب ؟ والأهم من ذلك ، ألم يكن هيكل نفسه من أهم المروجين لسياسة احتلال مساحة محدودة من الأرض ، والثبات فيها ، وتحريك الأزمة كلها من خلالها ــ وهو ما حدث بالضبط فى حرب ١٩٧٣ ؟

ان فى وسع هيكل ، بالطبع ، أن يرد بقوله ان ما كتبه قبل الحرب شىء ، وما حدث فى الحرب الفعلية شىء آخر . فقد أتت الحرب نفسها بمفاجأة لمخططى سياسة تحرير مساحة محدودة من الأرض : هى فى الواقع المفاجأة التى كان يدخرها شعب مصر « لعبقرية » السياسيين ، عندما تمكن أبناء الشعب فى جيشهم من العبور بسهولة غير متوقعة ، وأحرزوا نجاحا سريعا قليل التكاليف، مما أوقع المخططين العباقرة فى حيرة ، وأوجد موقفا جديدا لم يتوقعه واضعو سياسة الحرب المحدودة ، وعلى رأسهم هيكل . ولكن ، هل كان من المعقول ان يحدث تغيير مفاجىء للخطط السياسية فى أعقاب هذا النصر الأول السريع ، بعد أن ظلت الدبلوماسية الرسمية ، من سرية وعلنية ، وأجهزة الاعلام الساداتية والهيكلية ، تبنى كل شىء على أساس حرب محدودة تحرر قطعة أرض صغيرة وتحتفظ بها ؟ لو كان المخططون والكتاب الصحفيون العباقرة ، قد وضعوا منذ البداية بدائل ، وعملوا حسابا للموقف الذى تحقق ، ضمن هذه البدائل ، لربما أمكن عندئذ أن تتغير السياسة بسرعة تمشيا مع الوضع الجديد . ولكن كل شىء كان مرسوما على أساس حرب التحريك المحدودة ، ولم تنتظر أمريكا رسالة حافظ اسماعيل السرية لكى تعرف ذلك ، بل كان يكفيها ان تثابر ــ كما أرجح انها فعلت ــ على قراءة هيكل .

يبقى أمامنا أن نتساءل : ما تأثير السياسة التى اتخذت مجرى

جديدا كل الجدة فى عامى ١٩٧١ و ١٩٧٢ ، على التطورات التالية فى مصر وفى العالم العربى ؟ ان هاتين السنتين تحملان ، فى رأيى ، بذرة معظم التطورات التالية • واذا كان هيكل قد قام بالدور الذى حددنا معالمه فى تهيئة الأذهان لتحول حاسم فى السياسة المصرية ، ما بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧٢ ، واذا كان قد غير اتجاهه تغييرا جذريا ، مع تغير الحاكم وسياسته ، خلال هاتين المرحلتين ، فان معنى ذلك ان مسئولية هيكل عن التطورات السلبية المتأخرة للعهد الساداتى مسئولية لا شك فيها • صحيح ان السنين تضيف عوامل ومتغيرات جديدة ، ولكن هذه كلها اضافـــات للأسس الأولى التى ارسيت فى هاتين السنتين الأوليين ، وعلى رأسها التحالف مـــع أمريكا ، والحرب المحدودة بهدف الصلح الذى تتوسط فيه أمريكا ، والامتناع عن التسلح عن طريق السوفيت والالتجاء الى أمريكا ، نفس البلد الـــذى يقدم لخصمنا سلاحه ويعلن على الملأ انه يضمن تفوقه •

ومنذ اللحظـة التى قررنا فيهـا اللجـوء الى أمريكا ، لكى تتوسط بيننا وبين اسرائيل ، ومنذ اللحظـــة التى رفضنا فيهـا السلاح السوفيتى لكى نختار بدلا منه سلاحا أمريكيا ، حسمت أمور عديدة تحقق الكثير منها فيما بعد • فهذا القرار ينطوى ، بصـــورة جنينية ، على فكرة الصلح مع اسرائيل ، وجعل العداء للسوفيت هدفا رئيسيا لسياستنا ، والتعاون مع أمريكا ، وتطبيق أفكارها فى حياتنا الداخلية ، وخاصة الاقتصاد •

ولكى ندرك مرارة هذه الحقيقة ، وخاصة فى ضوء الضجـــة التى يثيرها هيكل هذه الأيام ضد العهد الساداتى الذى نسى انــه كان فيلسوفه الأول خلال السنوات الأولى والحاسمة من تاريخه • دعونا نفكر بامعان فى مغزى عبارة هامة قالها موشى دايان ، تعليقا على رحلة السادات بالطائرة الى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ : « لقد أديرت محركات طائرة السادات حين طرد الخبراء السوفيت وبـدأ سياسة تنويع السلاح وقبل باتفاقات فك الاشتباك بكل ما يعنيه

ذلك من استبعاد للخيار العسكرى »(٢٥) .

هذا كلام خطير بقدر ما هو واضح : فأولئك الذين رسموا سياسة تنوع التسلح عن طريق طرد الخبراء السوفيت والترويج لفكرة التقارب التدريجى مع أمريكا ، هم الذين أداروا محركات طائرة السادات المتجهة الى القدس ، لأنهم ربطوا مصير بلادهم وجيوشهم بمصير راعية اسرائيل وحاميتها . ومن الواضح ان هيكل ، بالنسبة الى هؤلاء ، كان كبيرهم ومفكرهم وموجههم . فالبذرة الأولى قد غرستها يد هيكل ، وما يتبقى بعد ذلك ليس الا من قبيل التفاصيل . ومع ذلك فان هيكل نفسه هو الذى يأتى فى أيامنا هذه ، وينعى على السادات ركوبه تلك الطائرة التى كان هو ذاته قد زودها بالوقود وأدار لها المحركات .

أتريد ، أيها القارىء ، معرفة الأصول الأولى للكارثة الحالية ، و « الجذور » ؟ اقرأ صفحات هذا الفصل ثانية ، وفكر فيها بامعان .

---

(٢٥) النص ماخوذ عن محاضرة للاستاذ توفيق ابو بكر فى رابطة الاجتماعيين بالكويت ، فى ١٩٨٣/٤/٢٥ ، وعنوان المحاضرة هو « الولايات المتحدة والصراع العربى الصهيونى » .

الفصل التاسع

عمنا ســام

لســت أدرى لم اختار هيكل أن يوجه كتابه عن السادات الى الجمهور الامريكى على وجـه التحديد · ولكن الأمر المؤكد هو أنه ، طوال هذا الكتاب ، كان يضع في ذهنه هذا الجمهور وهو يشرح هذه النقطة أو تلك ، ويقوم بهذا التحليل أو ذاك ، مما أعطى الكتاب ، فى مواضع غير قليلة ، طابعا غير مألوف لدى القارىء العربى ·

فمنذ اللحظة الأولى ، يركز هيكل عـــلى صفة « النجومية » ، وعلى « صناعة النجم » ، وكأنها هى التى تلخص شخصية السادات ، مع انها ــ من وجهة نظر كاتب هذه السطور ــ لا تزيد عن كونهـا أسلوبا ملائما لجمهور أجنبى اعتاد التهريج السينمائى حتى أصبحت صفة « النجومية » أساسيــة عنـــده ، حتى فى اختياره لرئيس جمهوريته · وهكذا يتحدث « خريف الغضب » فى مقدمته عن نجوم العصر ، فيضع ضمنهم « جاكلين كينيدى » ، ويشعر القارىء العربى بأنه تلقى لطمة وهو يقرأ عن هذه النماذج المنحلة ، وان كان القارىء الأمريكى لا يرى أية غرابة فى ذلك · والواقع أن السادات لم يكن فى وقت من الأوقات نجما بالنسبة الى شعبه ، أعنى المصريين والعرب على حد سواء ، بل كان نجما فى نظر الأمريكان وبعض الأوروبيين ، وذلك لأسباب لا علاقة لها بشخصه ، وانما بسياسته ·

اننا نعلم جميعا ان أجهزة الاعلام الغربية ، والأمريكية بوجه خاص ، قد تعمدت أن تضخم صورة السادات • ولم يكن ذلك راجعا فقط الى اعجاب هذه الأجهزة بذلك الصديق المخلص الجديد ، أو الى صفات معينة فى شخصيته أهلته لكى يكون فى نظرها « نجما » ، وانما كان يرجع قبل كل شىء الى رغبتهم فى الحصول منه على المزيد من التنازلات ، عن طريق خدعة الاعجاب الاعلامى الزائد • فقد كان من الواضح ان لدى السادات ، شأنه شأن معظم الحكام الفرديين ، وربما بصورة أشد تطرفا من الباقين ، ميلا شديدا الى الاحساس بأهميته وخطورته ، وكان ذلك يتجلى بوضوح حين تنشر الصحف المصرية ، على الدوام ، تعليقات الصحف والاذاعات الأخرى على خطاباته لكى تبين مدى اعجاب الآخرين به • وقد أتقن الأمريكيون فن دراسة نقاط الضعف فى شخصيات الزعماء ، وخاصة في العالم الثالث ، للاستفادة من نقاط الضعف هذه بقدر ما يستطيعون • وهكذا كان كل مقال يكتب عن السادات فى صحيفة أمريكية ، وكل صورة له ، أو لأسرته ، على غلاف مجلة أمريكية ، تعني مزيدا من التنازلات ، ومزيدا من الترحيب بالنفوذ الأمريكى ، ومزيدا من الامتيازات الاقتصادية أو العسكرية التى تمنح للغرب بوجه عام •

لم تكن المسألة اذن مسألة « نجومية » ، وانما كانت « صناعة النجم » هذه ، في حقيقتها ، استغفالا واستغلالا لغرور حكام العالم الثالث • ومع ذلك فان هيكل أراد فى كتابه أن يصحح فكرة الجمهور الأمريكى عن « معبوده » الجديد ، وأن يرسم له الصورة التى يعتقد انها حقيقية ، فى مقابل الصورة المتطرفة فى الاعجاب ، التى صورتها أجهزة الاعلام الأمريكية للسادات • ولكن ، ما الذى يدعونا الى تصحيح فكرة المجتمع أو الرأى العام الأمريكى عن السادات ، وما الذى سنجنيه من ذلك ؟ ان أمريكا هى العدو الأول لأمانى الشعب العربى وتطلعاته ، فلماذا نجهد أنفسنا لكى نقدم اليها الصورة الصحيحة ـ ان كانت بالفعل صحيحة ؟ لماذا لم يوجه

الكتاب ، مثلا ، الى المعسكر الاشتراكى ، أو الى العالم الثالث ، أو الى الشعب العربى ، ولماذا يحرص المؤلف منذ الصفحات الأولى على أن يؤكد أن صورة السادات عند الغرب لم يكن لها ما يبررها ؟ ألا يزال عندنا نوع من « الأمل » فى أمريكا حتى نتعشم منها خيرا عندما تصحح فكرتها عن زعمائنا ؟

إن دور النشر الأمريكية أقدر من غيرها على ترويج الكتب • هذا صحيح ، ولكن هناك فارقا بين كتاب ينشر فى دار أمريكية ، وكتاب يؤلف من وجهة نظر تستهدف مخاطبة الجمهور الأمريكى • واعتقد أن اهتمام هيكل بمحور « الممثل » « والنجم » ، وبالعوامل والعقد النفسية فى النشأة الأولى ، واستخدام تشبيه « ترومان » لتبرير تعاونه مع السادات فى السنوات الأولى من حكمه ، كل ذلك يدل على أن هيكل كان يخاطب فى الأساس جمهورا أمريكيا ، ولم يكن ينشر فى دار أمريكية فحسب •

على أن الهدف الذى كان يرمى اليه هيكل من هذا كله هدف عقيم • فمن العبث أن يحاول أى مؤلف تصحيح صورة حاكم أعجب به الجمهور الأمريكى لأسباب لا علاقة لها ، فى الواقع ، بشخصه أو مسلكه • ان ما يهم أمريكا ، شعبا وحكومة وصحافة واعلاما ، هو المصالح ، وليس خفة دم هذا الحاكم أو طيبة قلب ذاك • ومن الممكن بالفعل أن يعجب الأمريكيون بحاكم من أجل هذه الصفات الشخصية ، ولكن « بعد » أن يكون هذا الحاكم قد خدم مصالحهم • أما اذا تعارضت سياسته مع المصالح الأمريكية ، فعندئذ لن يشفع له فى نظرهم أن يكون فى خلقه الشخصى قديسا • وهكذا فان الأمريكيين لا يكونون صورتهم عن أى زعيم على أساس فضائله الداخلية أو الشخصية ، أو حتى طريقته السليمة فى الحكم ، بل على أساس ما يمكن أن يجنوه منه من فوائد • فالسادات كان معبود الأمريكيين ، لا لأن شخصيته كانت محببة لديهم ، بل لأنه حقق لهم أكثر مما كانوا يحلمون فى الشرق الأوسط كله : فأخرج السوفيت من أهم بلد عربى ، وفتح الأبواب للأسلحة والخبراء

الأمريكيين ، وأعطى الاستراتيجية الأمريكية قواعد أو ركائز أو تسهيلات (سمها ما شئت ، فالحقيقة واحدة) ، وجعل محاربة الشيوعية هدفا له الأولوية المطلقة على مكافحة الصهيونية ، وتطرف في تحديد المقصود « بالشيوعية » حتى أدمج فيها كل حركة وطنية تكافح الاستعمار والاستغلال • أما مسألة ما اذا كان حاكما جيدا أو سيئا ، وما اذا كان قادرا على حل مشاكل شعبه أم مشاركا في تخريبه ، فهذه مسائل لا تهم الأمريكيين كثيرا • وكم من طاغية في أمريكا اللاتينية ، مثلا ، كانت فضائحه وجرائمه على ألسنة الناس في العالم أجمع ، ومع ذلك كان الأمريكيون معجبين به أشد الاعجاب ، ويساعدونه بكل طاقاتهم في تثبيت حكمه الارهابي : كما حدث في حالة سوموزا ، وباتستا ، وما يحدث حاليا في حالة بينوشيت • وأستطيع ان أقول ان هذا ليس الموقف الرسمي للحكومة الامريكية وحدها ، بل أن الشعب الامريكي ذاته قد تشكلت عقوله بحيث يوجه اعجابه بأي حاكم أجنبي في اتجاه مصالحه ، لا في اتجاه مصالح البلد الذي يحكمه هذا الحاكم • وهكذا فان محاولة هيكل أن يفتح عيون الأمريكيين على حقيقة السادات محاولة فاشلة ، بل انها تفترض منذ البداية صفات في الجمهور الامريكي لا يمكن أن توجد فيه • وهنا لا يملك المرء الا أن يكرر السؤال الذي بدأنا به هذا المقال : لماذا اختار هيكل الجمهور الامريكي لكي يوجه اليه حديثه في هذا الكتاب ؟

ان المرء يستطيع أن يقول ، باطمئنان ، ان علاقة هيكل بأمريكا علاقة حميمة ، خاصة جدا • فمنذ البداية كانت أمريكا هي الموضوع الرئيسي الذي دار حوله الخلاف بينه وبين الأجنحة الناصرية الأخرى ، فضلا عن اليسار بطبيعة الحال • وكان ايمان هيكل بقوة أمريكا وتأثيرها ودورها وعدم امكان تجاهلها ، ايمانا راسخا لا يتزعزع ، أما الكتابات التي هاجم فيها أمريكا في السنوات الأخيرة من حكم عبد الناصر فلا تمثل أي اتجاه دائم لديه ، وانما كان هذا الهجوم ضرورة تكتيكية في ظل الظروف السائدة بعد هزيمة

١٩٦٧ • وما أن استتب الأمر للسادات ، حتىعاد الاتجاه الأمريكى للظهور ، وكان التحول الذى طرأ على اتجاه السياسة المصرية نحو أمريكا فى عام ١٩٧٢ ، والذى دعا اليه هيكل بحماسة بالغة ، هو نقطة البدء الحقيقية فى التغلغل الأمريكى فى المنطقة العربية كلها ، وليس اتفاقية فض الاشتباك ، كما يؤكد هيكل باستمرار •

ومما يلفت النظر أن هيكل ، فى كتابه عن السادات وفى أحاديثه الصحفية عن فترة ١٩٧٣ و ١٩٧٤ ، التى تزايدت بصورة ملموسة فى الآونة الأخيرة ، لم يذكر شيئا عن حصار الجيش الثالث فى الضفة الشرقية للقنال من حيث هو أحد الأسباب الرئيسية للتوقيع على اتفاقية فصل القوات ، أو فض الاشتباك ، التى بدأ فيها الخلاف يظهر بين السادات وهيكل • ذلك لأن الحصار الكامل الذى فرضته اسرائيل على هذا الجيش ، كان هو الأساس الأهم للصفقة التى تمت بين السادات وأمريكا : اذ تعهدت هذه الأخيرة بأن تحفظ للسادات ماء وجهه ، ولا تسمح لاسرائيل بتجويع الجيش الثالث أو بدفعه الى الاستسلام ، وفى مقابل ذلك اعترف السادات لأمريكا بالجميل ، لكى يظل قادرا على القول ان جيوشه كانت فى الضفة الشرقية حتى نهاية الحرب ، ووقع اتفاقية فض الاشتباك الأولى ، وهذه جرت الثانية ، كما جرت معها مزيدا من النفوذ لأمريكا فى المنطقة • فما سبب تجاهل هيكل لهذا العامل الحاسم ، على الرغم من أحاديثه المسهبة حول هذه الفترة ؟

لقد تم هذا الحصار وتحقق بمساعدة مباشرة من أمريكا ، وكانت الدبابات تنزل من سفن الشحن أو الطائرات الأمريكية الى ساحة المعركة مباشرة ، كما لعبت الأقمار الصناعية ووسائل التجسس الأمريكية دورا أساسيا فى تحديد مكان النغرة التى أدت آخر الأمر الى هذا الحصار ، وهو موضوع شرحه هيكل بالتفصيل فى مقالاته التى كتبها عن هذه الفترة • فما الذى جعله يمتنع عن الخوض فى هذا الموضوع الحيوى فى كتابه الأخير ؟ هل يرجع ذلك الى أنه لم يشأ أن يقول للجمهور الأمريكى ، الذى وجه اليه الكتاب ، ان

الوضع السيء الذى وجد فيه الجيش الثالث نفسه كان من صنع أمريكا ؟ هل يرجع الى انه لم يشأ أن يتحدث عن الصفقة التى يمكن أن تكون قد عقدت بين السادات وأمريكا ، بحيث يقايض السادات انقاذ أمريكا له من الكارثة المحلية والفضيحة الدولية المترتبة على خنق الجيش الثالث واحكام القبضة على عنقه بالتدريج ، مقابل ابداء الاستعداد التام لقبول المطالب الأمريكية ؟ اننا هنا ندخل منطقة البحار العميقة ، التى تمس صميم الصفقات والاتفاقات السرية ، والتى يصعب الكلام عنها الا عن طريق الاستنتاج • ولكن تسلسل الأحداث جاء كما يلى : أخذت السياسة المصرية تتجه منذ عام ١٩٧١ ، نحو الميل الى الطرف الأمريكى والابتعاد عن الطرف السوفيتى ، وتقدم هيكل بالنظرية التى تقول بامكان ايقاف فاعلية أمريكا فى مساعدتها لاسرائيل فى ظل ظروف وتوازنات دولية معينة ، وطبقت هذه السياسة عمليا ، وكانت أهم خطواتها طرد الخبراء السوفيت بطريقة مدوية ، ثم قامت حرب أكتوبر ، وكانت لدى أمريكا معرفة كاملة بالطبيعة المحدودة لهذه الحرب ، فى ضوء اتجاهات السياسة المصرية كلها ، وفى ضوء كتابات هيكل الصريحة والواضحة حول هذا الموضوع • ولكن السياسة الجديدة التى كان النبى المبشر بها هو هيكل ، أتت بنتائج عكسية تماما : فبدلا من « تحييد » أمريكا ، قامت أمريكا بأعظم وأسرع عملية انقاذ فى التاريخ ، زودت فيها اسرائيل عبر جسر جوى جبار بما يكفيها للصمود فى وجه الأداء المصرى والسورى الممتاز فى الأيام الأولى للحرب ، ثم الانتقال الى الهجوم الذى أسفر ، فى سوريا ، عن تهديد دمشق ذاتها ، وفى مصر عن ثغرة أخذت تتسع بالتدريج حتى حاصرت الجيش الثالث كله حصارا كاملا • كان هذا الانقلاب فى الميزان العسكرى من صنع أمريكا فى المحل الأول ، وعندما أمسكت بكل الخيوط فى أيديها بدأت تحركها كما تشاء ، وبدلا من أن تتمكن السياسة المصرية من « تحييدها » ، أصبح الجيش الثالث وسمعة مصر وهيبة النظام ورجاله رهينة فى أيديها ، وبدأ مسلسل توقيع

الاتفاقات الاستسلامية ٠

هذا الجانب من الموضوع سكت عنه هيكل تماما وسط الضجيج الهائل الذى أثاره فى كتابه الأخير ، وفى أحاديثه الصحفية الكثيرة هذه الأيام ، حول حرب أكتوبر ٠ فهل كان سكوته شعورا بالحرج من أن تنكشف النتائج المأساوية لدعوته الى سياسة « التحييد » ، أم كان امتناعا عن الغوص فى البحار العميقة ، التى تهدد من يقترب منها بالغرق ؟

أيا ما كان الجواب ، فان هذه هى المرحلة التى أقام فيها السادات اتصالا وثيقا مباشرا مع الأمريكيين ، وفيها يروى هيكل قول السادات لكيسنجر ، عندما اجتمع به فى بداية محادثات فض الاشتباك الأول ، « لماذا لم تأت من قبل ؟ » وفى رأيى الشخصى ان هذا الاتصال المباشر الذى أقامه السادات مع الأمريكيين منذ ذلك الحين ، والذى ازداد توثقا مع الأيام خلال السنوات التالية ، كان من الأسباب الرئيسية للجفوة ثم الخلاف بين هيكل والسادات : اذ كان السادات قبل هذه الفترة يعتمد كثيرا على هيكل فى كل ما يتعلق بالاتصال بالأمريكيين ، على أساس الصلات الوثيقة التى كانت تربط هيكل بهم ، وعلى أساس ما كان شائعا عنه من أنه يفهم الأمريكيين أكثر من غيره ٠ ولكن منذ أن أقام السادات جسوره المباشرة بنفسه ، ومنذ ان فتحت قنوات اتصال واسعة بينه وبينهم ٠ لم يعد فى حاجة الى صلات هيكل أو خبرته الأمريكية ، وبدأ يتجه الى الاستغناء عنه ٠ وفى الوقت ذاته فان هيكل ، عندما شعر بأنه يستبعد بالتدريج ، أخذ يوجه انتقاداته الى سياسة السادات ، لا سيما وأن هذا الأخير قد سكر بنشوة الغرام الأمريكى الى حد أنه أوقع نفسه فى أخطاء لا حصر لها ، بينما كان هيكل يعرف جيدا ان أمريكا لا ترتبط طويلا بالعشيق الولهان بحبها أكثر مما يجب ، والذى يفصح عن هذا الحب علنا ودون مواربة ٠ انها سرعان ما تنبذ كل من يفضح غرامه بها ، لأنها تفضل دائما العلاقات الخفية ، المستورة ، الشديدة الفعالية ، ولا بأس ـ حتى ـ من مهاجمة

أمريكا فى العلن من آن لآخر ، حتى تظل الروابط الخفية قائمة ٠٠ هذا هو قانون الغرام الامريكي الذى لم يفهمه السادات فدفع حياته ثمنا لعدم الفهم ٠

وهنا نصل الى منطقة أخرى من مناطق البحار العميقة ، مر عليها هيكل فى كتابه سريعا ، وعالجها بطريقة غير متعمقة ، مع أنها كانت تستحق وقفة متأنية وتحليلا متعمقا ـ وأعنى بها موضوع مقتل السادات ، واحتمال وجود دور لأمريكا فيه ٠ فهيكل قد حرص على تبرئة الامريكيين من أية شبهة فى هذا الحادث ، بعد مناقشة موجزة تنم عن رغبته فى أن ينفض يديه بسرعة من هذه المسألة الشائكة ، فى الوقت الذى حرص فيه على أن يتقصى خبايا مسائل أقل أهمية من هذه بكثير ٠

فحين طرح هيكل النظرية القائلة بوجود مؤامرة أمريكية فى قتل السادات ، استبعدها بسرعة لثلاثة أسباب تبدو فى نظرنا غير مقنعة على الاطلاق :

السبب الأول أن نظام السادات كان أحد الدعائم الرئيسية فى سياسة ريجان المعادية للشيوعية فى المنطقة ، واستطاع التدخل فى بعض بؤر المتاعب الأفريقية (متاعب من وجهة نظر أمريكا بالطبع ، أما من وجهة نظر العالم الثالث فهذه « المتاعب » هى حركات تحرير وطنى) ٠ والسبب الثانى أن الولايات المتحدة لا تستطيع تحمل سقوط شاه آخر بعد أقل من سنتين من سقوط الشاه الأصلى فى ايران ٠٠ أما الثالث فهو أن من الصعب تصور وجود تلاق فى الفكر أو العمل بين وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبين التنظيمات الاسلامية ٠

هذه الأسباب لا تكفى على الاطلاق لتبرئة أمريكا من تهمة التآمر على قتل السادات ، اذ أن محاربة السادات للشيوعية تتوقف على مقدار فاعليته كحاكم ، بين شعبه والشعوب العربية الأخرى ٠ أما فقدان السادات لفاعليته بين الشعوب العربية فكان قصة

معروفة ، بدأت منذ فض الاشتباك الأول ، وانتهت الى قطيعة تامة بعد اتفاقية كامب ديفيد ، وهـــو أمر ينبغي أن تضعه أمريكا فى اعتبارها عندما تحسب مدى فائدته لها كصديق • وأما فاعليته بين شعبه فقد شهد بضياعها كثير من الأمريكيين ، ومنهم سفـــراء فى المنطقة نشروا تقارير مشهـــورة تضمنت نقـــدا مريرا لسياسة السادات • وكان الشـــاهد الأكبر على فقـــدان السادات فاعليته كصديق ينفع أمريكا فى تحقيق سياستها فى المنطقة ، هو حركـة اعتقالات سبتمبر ، التى اغضبت الجميع ، ولم تترك للســـادات صديقا فى مصر ، بدءا بأقصى اليمين ، حتى أقصى اليسار ، مرورا بأحزاب المعارضة والسياسيين المخضرمين • فما قيمة هذا الصديق الذى يفقد فاعليته فى بلده الى هذا الحد ؟ ان من اللافت للنظر ان حجم الانتقادات التى وجهت الى أسلـــوب حـــكم السادات ، بعد اعتقالات سبتمبر ، التى سبقت اغتياله بشهر واحد ، كان هائلا الى درجة ادهشت السادات نفسه • فقد ثارت الصحافة الغربية ، فى أمريكا بوجه خاص ، ثورة عـــارمة على ممارسات السادات غير الديمقراطية ، وهو أمر ليس من عادتها أن تـــقوم به بالنسبة الى أصدقائها فى أمريكا اللاتينية ، مثلا ، الذين يصفون الألوف مـــن معارضيهم جسديا دون أن تتحرك الصحافة الا فيما ندر • وهكذا كان واضحا ان نفس أولئك الذين « صنعوا النجم » قرروا أن وقت افوله قد حان •

أما عدم تحمل أمريكا لسقوط شاه آخر بعد أقل من سنتين ، فهو حجة لا تقنع أحدا ، اذ أن أمريكا تستطيع أن تتحمـــل سقوط ألف شاه ما دامت واثقة من أنها ستجد البديل • ولا ننسى أن الشاه كان يؤكد دائما ان أمريكا هى التى ألقت به بعيدا « كالفأر الميت » ، بل ان احتمال اشتراك مخابراتها فى التعجيل بموته قد أثير بقوة فى كثير من الأوساط •

تبقى أخيرا مسألة استبعاد وجود تلاق فى الفكر أو العمل بين المخابرات المركزية الأمريكية والتنظيمات الاســـلامية • وهذه فى

الواقع حجة شديدة السذاجة ، لا يملك المرء ازاءها الا أن يقول لهيكل : أنت تعرف خيرا من ذلك ! فالمخابرات الأمريكية لن تتلاقى مباشرة بالطبع ، في الفكر أو العمل ، مع أى تنظيم كذلك الذى قتل السادات ، وانما ستعمل من خلال « وسائط » قريبة من فكر هذا التنظيم وعمله ، وما أكثر هذه الوسائط في البلاد الاسلامية ٠ ولا بد أن يكون أسلوب العمل هو الاتصال عن بعد ، بحيث لا يشعر المنفذون الأصليون بوجود أى تحريض خارجى على الاطلاق ، وتظل دوافعهم الدينية الأصلية هى التى تدفعهم طوال الوقت ٠ وينبغى أن نلاحظ ان تغلغل أجهزة المخابرات العالمية فى الجماعات الشديدة التطرف ، يمينا ويسارا ، هو أسهل الأمور ، وهو حادث بالفعل على نطاق عالمى ٠ وعلى أية حال فاننا هنا ندخل منطقة من أخطر مناطق البحار العميقة ، التى ينبغى فيها على شهر زاد أن تسكت عن الكلام المباح ، والا فلن يدركها الصباح !

ان ابداء رأى قاطع فى مثل هذه الأمور التى هى بطبيعتها شديدة الخفاء ، والتى تدبر باحكام وتكتم بالغ ، هو أمر مستحيل ٠ ويكفى أن رئيس جمهورية أمريكى مشهور ، هو جون كنيدى ، قد اغتيل فى ظروف مريبة الى أقصى حد ، وشعر الكثيرون ان أجهزة أمريكية خفية هى التى قتلته ، ولكن الموضوع ظل حتى يومنا هذا غامضا ، يثير علامات استفهام كبرى ، بعد أن قدمت هذه الأجهزة شخصا على انه القاتل ، ثم قتلت هذا القاتل ، ثم قتلت قاتل القاتل ٠٠ انها أمور لا تتكشف حتى لأدق لجان التحقيق ، ولكن « الضحايا » ، الذين يعرفون أساليب هذه الأجهزة خيرا منا جميعا لأنهم تعاملوا معها طويلا ، غالبا ما يفهمون طبيعة ما حدث ٠ فقد أدرك شاه ايران ، كما قلنا ، ان سلبية قادة جيشه أزاء المظاهرات العارمة فى أيامه الأخيرة لا بد أن تكون راجعة الى أوامر من أسيادهم الأمريكان ٠ وكانت زوجة السادات وأسرته ، كما قال هيكل نفسه ، من أقوى المؤيدين لنظرية المؤامرة الأمريكية ، ولم يعدلوا عنها لأسباب منطقية ، بل لأسباب مصلحية : « فقد وجد

أفراد الأسرة انها (أى النظرية) لا تستطيع أن تصل بهم الى شيء ، بل بالعكس قد تضر مصالحهم مع قوة يعتبرون انها قادرة علـى حمايتهم » •

انها كما قلت موضوعات شديدة التعقيد ، يكـاد يستحيل كشف وقائع ملموسة تلقى الضوء على خباياها ، وكل ما يملكـه المرء ازاءها هو ان يستنتج ، ويرجح الفرض الذى يفسر أكبر عدد ممكن من الظواهر • وأحسب ان افتراض وجود مؤامرة أمريكية ، بالصورة التى عرضناه بها ، أقدر من غيره على تفسير أشياء كثيرة ، فضلا عن أنه لا يتعارض مع الفرضين الآخرين ، أعنى وجـود مؤامرة داخل الجيش ، ووجود تنظيم اسلامى واسع النطـاق هـو الذى تولى تنفيذ العملية • فمن الممكن أن يكون لهذه الجهـات الثلاث معا دور فى تلك العملية التى خططت ونفذت باحكام يفوق الوصف ، وهو احتمال لم يعرض له هيكل ، فى حرصه الشديد على استبعاد الفرض الأمريكى بسرعة •

ولكن ، اذا تركنا هذا الميدان الشديد الغموض ، المحفـوف بالمخاطر ، وانتقلنا الى التحليل السياسى المرتكز على أرض أكثر صلابة ، لوجدنا أن أمريكا ، ان لم تكن قد خططت لقتل السادات ، فانها حكمت عليه بالاعدام سياسيا ، بعد أن استهلكته واستنفدت أغراضها منه •

فبعد أن وقع السادات معاهدة كامب ديفيد ، بما فيها من بنود مفصلة بشأن انسحاب اسرائيل من سيناء والتطبيع معها ، وبما فيها من اشارات قليلة شديـدة الغمـوض عن القضية الفلسطينية ، وبعد أن ثارت ثائرة العالم العربى على هذه المعاهدة وقطعت معظم بلاده علاقاتها بنظام السادات ، كانت أمريكا تستطيع أن تسلك طريقا من طريقين :

الطريق الأول هو أن تدعم السـادات وتضـمن مستقبله السياسى عن طريق اثبات صحـة موقفه أمام العـالم العربى • ويقتضى هذا الطريق ان تتطور الاتفاقيـة بحيث تصبح أكثر من

مجرد صلح منفرد بين اسرائيل ومصر ، أى أن تسير - كما طالب السادات مرارا - فى طريق التسوية الشاملة • مثل هذا المسلك سيكون فيه انقاذ للسادات ، لأنه رهن مستقبله السياسى ، وعلاقاته مع العالم العربى بأسره ، على هذا التوقع • ولو سارت أمريكا ، ومعها اسرائيل ، فى هذا الطريق ، وحققت للسادات على الأقل جزءا مما يريد ، خارج نطاق التسوية المحلية بين مصر واسرائيل ، لاستطاعت ان تعيد اليه مكانته فى العالم العربى ، ولأمكنها ان تربط كثيرا من البلاد العربية بعجلة الاتفاقية الجديدة •

ولكن هذا الطريق كان ينطوى ، من وجهة نظر أمريكا ، على عيوب واضحة : اذ أنه يؤدى الى دفع ثمن باهظ ، هو الانسحاب الاسرائيلى من الأراضى المحتلة بعد ١٩٦٧ ، والى توحيد البلاد العربية فى خط سياسى واحد ، يقوى جبهتها فى المطالبة بالحقوق الفلسطينية ، وقد يؤدى فى المدى الطويل الى انشاء كيان فلسطينى على مستوى معقول ، فضلا عما تؤدى اليه التسوية الشاملة ، بشروط معقولة ، من توفير ضخم للأموال والطاقات العربية فى اتجاه التنمية والتعمير •

أما الطريق الثانى ، الذى يرجح ان اسرائيل قد ألحت عليه ، واستجابت لها أمريكا بعد أن اقتنعت بانه أكثر تحقيقا لمصالحهما المشتركة ، فهو عدم مجاملة السادات ، وعدم بذل أى جهد من أجل انقاذه من ورطته ، ما دام قد أدى مهمته الأساسية ، وعدم التنازل لبقية العرب عن شيء • هذا الطريق يتضمن من وجهة النظر الأمريكية - الاسرائيلية ، مزايا عديدة : بقاء العالم العربى ممزقا وفى حالة ضعف شديد ، والاستفراد بكل دولة بعد الأخرى وعزلها عن الباقين ، واخراج مصر نهائيا من الصراع العربى الاسرائيلى وضمان حرية الحركة الكاملة لاسرائيل • وهكذا فان مزايا هذا الطريق أعظم بكثير، من وجهة نظرجبهة الأعداء ، من الطريق الآخر •

وكان الثمن الوحيد الذى ينبغى دفعه فى حالة اتباع هذا الطريق الثانى ، هو التضحية بالسادات •••

والآن ، تخيل نفسك أيها القارىء أمريكيا مخلصا ، حريصا على مصلحة بلدك وعلى ارتباطات هذا البلد بالدولة الصهيونية التى تحقق له كل أهدافه فى المنطقة ، فأى الطريقين تختار ؟ تهديدك لمصالح بلدك وحلفائك من أجل فرد واحد مخلص لك ، أم التضحية بالفرد وبمستقبله ، مهما كان اخلاصه ، من أجل ضمان مصالحك وزيادة مكاسبك ؟

لقد كان جواز المرور الوحيد لدى السادات امام العالم العربى ، والمبرر الوحيد لتوقيعه المعاهدة ، هو أن تستمر قوة الدفع الى أن تتحقق التسوية الشاملة · ولكن الطرف الآخر ــ وله كل الحق فيما فعل ، من وجهة نظره الخاصة ــ وجدها فرصة ذهبية لتوريطه ، وتركه عاريا فى منتصف الطريق ، فضمن المكسب وتجنب الخسارة · وهكذا ، فمنذ اللحظة التى ساندت فيها أمريكا حليفتها اسرائيل فى تعنتها ، ومنذ اللحظة التى قررت فيها أمريكا ألا تضغط على اسرائيل الى الحد الذى يلزمها بالسير قدما نحو التسوية الشاملة ــ منذ هذه اللحظة كانت قد حكمت على السادات بالاعدام·

ولقد أدرك هذه الحقيقة بوضوح تام السفير الامريكى الأسبق فى مصر ، لوشيوس باتل ، وعبر عنها بكلمات بالغة الدلالة فى المقال الذى كتبه فى رثاء السادات : « كلما كانت الولايات المتحدة تضغط عليه للدخول فى كامب ديفيد ، كان تعرضه للخطر يزداد ، فلن نقبل نحن ولا الاسرائيليون نتائج الأخطار التى كنا ندفعه اليها · ولقد كانت الطريقة الوحيدة التى كان يمكن بواسطتها ان يصبح لاتفاقيات كامب ديفيد معنى فى نظر السادات هى افتراض امكان التقدم نحو صلح شامل ، وكان من الضرورى ان تظهر علامات واضحة على أن طريقه هو الصحيح ، حتى يحذو العرب الآخرون فى الوقت المناسب حذو السادات ، وهو أمر كان يقتضى فهما من جانب اسرائيل وضغطا من الولايات المتحدة على الفريقين لتحريك مباحثات الحكم الذاتى وخفض عدد المستوطنات فى الضفة الغربية · ولكن بدلا من ذلك ، زادت المستوطنات ، وأضيفت اهانة ضرب

المفاعل فى العراق وقصف بيروت • ولم تفعل الولايات المتحدة شيئا •• وهكذا أصبح السادات شهيدا لنفسه وللعالم الغربى ، ولكن ليس للشرق الأوسط ، سواء منه العربى أو الاسرائيلى » •

« لقد كانت المجموعة الأمريكية التى شيعت جنازته ضخمة الى حد لم يعرف له مثيل من قبل • وهكذا فاننا بعد أن خذلناه حيا ، قد احتضناه ميتا »(١) •

فى هذه الشهادة المباشرة ، يظهر بوضوح ان السادات كان ، بالنسبة الى أمريكا ، قد استنفد أغراضه ، وأدى ما هو مطلوب منه ثم ترك لمصيره المحتوم • ولم يعد مجديا بعد ذلك ان يحاول استرضاءهم بتصريحات حامية ضد الشيوعية ، اذ أنهم كانوا قد اداروا له ظهورهم ، وعندما زارهم قبل مصرعه بشهرين ، كان واضحا أنه لم يعد فى نظرهم الزعيم المفضل الذى كان • ومنذ كامب ديفيد ، بل منذ زيارة القدس ، أدرك أصدقاء أمريكا ، الأكثر منه ذكاء والأبعد منه نظرا ، ان السفينة غارقة لا محالة ، وهكذا قفز منها اسماعيل فهمى ، ثم منصور حسن ، ثم هيكل ، الذى كان على أية حال واعيا بأبعاد الأزمة قبل الجميع • ولو لم يكن القتل الفعلى قد تم بتدبير من أمريكا ، لأمكن القول ـ على أقل تقدير ـ أن أمريكا هى التى قيدت يدى السادات بالسلاسل ، وأمسكت برأسه وشدتها الى الوراء ، ولم يبق الا السكين التى تذبح •

ومن هنا فانى أرى ان مرور هيكل السريع على مسالة دور أمريكا فى مقتل السادات واستبعاده أى فرض يحملها مسئولية ما حدث لصديقها العتيد ، هو أمر لا يمكن تفسيره الا بأحد أمرين : اما أن هيكل يشعر بالخطورة الشديدة لخوض هذا الموضوع ، الذى لا بد أن « أرشيفه » يمتلىء بالوثائق والمعلومات عنه ، واما أنه يريد أن يبعد عن ذهن القارىء أى احتمال لتورط

---

(١) انظر مقال Anwar Sadat Remembered المشار اليه فى صفحة ٧١ من ص ١٤١ الى ص ١٤٩

أمريكا ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، في هذه العملية .

ان المنحى العام لكتابات هيكل ، في مراحلها المختلفة ، يقنع كل من يتابعها بدقة بأنه كان يرتبط بأمريكا في علاقة حميمة جدا ، أما الانتقادات التي يوجهها اليها فانها الاستثناء الذي يؤكد القاعدة ، لأن أصدقاء أمريكا ، اذا كانوا أذكياء ، لا بد أن يهاجموها من آن لآخر ، بل انها هي ذاتها التي تطالبهم بذلك .

وأنا أعرف أن هذا الموضوع يثير حساسية خاصة لدى هيكل ، ولذلك فانني سأتبع في اثبيياتي لما أقول ، أكثر الطرق أمانا ، وأعني به الاستعانة بما يقول هيكل نفسه .

في أحد المواضع في كتاب « مدافع آية الله » يتحدث هيكل عن وساطة طلبتها منه أمريكا من أجل حل مشكلة الرهائن الذين كانوا محتجزين في السفارة الأمريكية بطهران ، مرة قبل محاولة أمريكا الفاشلة لانقاذ الرهائن بالقوة الأولى في صحراء تاباز ، ومرة أخرى بعد قيام هذه المحاولة وفشلها الذريع . في المرة الأولى سأله هارولد سوندرز ، وكيل وزارة الخارجية الأمريكية ، عما اذا كان على استعداد لمساعدة الرئيس كارتر ، فأجاب هيكل بأنه على استعداد لمساعدة الايرانيين . ومن الواضح ان السؤال أهم ألف مرة من الجواب . فما الذي يدفع موظفا رسميا أمريكيا الى أن يسأل صحفيا مرموقا في دولة يوجد بينها وبين أمريكا تضارب شديد في المصالح ، عما اذا كان على استعداد لمساعدة رئيس دولته ؟ وعلى أي أساس بنى توقعه بامكان قيام هيكل بهذه الخدمة للرئيس الأمريكي ؟

ولكن الأهم من ذلك هو الوساطة التي طلب الى هيكل القيام بها ، عن طريق رسالة بعثها اليه الأمريكيون . ونص الرسالة ، كما كتبها هيكل بنفسه(٢) ، هو :

---

(٢) « مدافع آية الله » لهيكل ـ الطبعة الثالثة ، دار الشروق (١٩٨٣) ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ .

« واتضح انها عبارة عن اقتراح ، القصد منه أن أقوم أنـا باستخدامه في محاولة جديدة لمفاتحة السلطات في طهران ، وكانوا يأملون أن أوافق على هذه الخطوة • وكانت الوثيقة غريبة بالفعل ولعل افضل طريقة لاظهار مدى ابتعاد التفكير الأمريكي عن الواقع هو أن أورد الوثيقة كما هي :

« الفكرة هي أن يذهب هيكل الى ايران ، ويقـدم الى بنى صدر طريقة تمكن الايرانيين من استخدام كارثة عملية الانقـاذ ، لاطلاق سراح الرهائن ، وان يضعوا نهاية لهذه القضية • كما يقوم هيكل باقناعه ان مثل هذا العمل ، فرصة نادرة ليركب موجـة قومية اسلامية لتدعيم مركزه ـ ويمكن تقـديم نفس الفكرة الى الخميني باعتباره مشاركا فى نفس الرغبة للتخلص من المشكلة •

« ويمكن لهيكل أن يستفيد من النقاط التالية :

أ ـ ان نجاح الثورة الايرانية أمر قد اتضح وتمت البرهنة عليه من جراء الهزيمة المخزية لبعثة الانقاذ الامريكية ، فلقـد بين الله سبحانه وتعالى للعالم ، انه مهما كان العدو جبارا ، فان الحق في جانب المظلومين وفى هذه الحالة ستتاح للجميع فرصة ليشهدوا التسامى الخلقى للجمهورية الاسلامية ولهذا :

ب ـ خدمت قضية الرهائن الغرض الذى كانت ترغب فيه ايران • فقـد كانت بمثـابة الاداة التى أظهرت للعـالم ، وبشكل مثير ، مساوىء حكم الشاه ودعـم الحكومة الأمريكية له • ان عجز الحكومة الأمريكية عن القيام بعملية انقاذ لهو الشهـادة الثانية والأخيرة على عدالة أخذ الرهـائن • (وعلى سبيـل المثال : أدى الفعل الايرانى الى رد فعل أمريكى نتـج عـن فشله تأكيد للرسالة التى كانت ايران تود أن تنقلها أساسا) لذا لم يعد هناك أى حاجة للرهائن •

ج ـ سيتم الافراج عن الرهائن ، لأن ايران لم تكن تنوى أبـدا الحاق الأذى بهم ، وهـذه اللفتة ستظهـر بشـكل مثير وواضح مدى سماحة الاسلام ورحمته وليس هناك شعـور

بالكراهية تجاه الشعب الامريكى ، وانما ينصب الكره على الحكومة وحدها (فيطلق سراح الرهائن الآن ، وليظهر غباء الامريكيين وعدم مهارتهم أكثر من ذى قبل ولتنقلهم الطائرات من تاباز نفسها امام مندوبى الصحف ولتدون كل ملاحظاتهم الساخرة المستخفة بالولايات المتحدة الخ ..) ولتظهر ايران والجمهورية الاسلامية بمظهر المنتصر ذى الأخلاق السامية .

د ـ وهكذا يظهر مختطفو الرهائن بمظهر المنتصرين والأبطال القوميين ، فهم لم يلحقوا الأذى بأحد ، كما انهم نفذوا تعاليم الامام . وستقوم الحكومة بمكافأتهم بسخاء ، ويعترف الامام بفضلهم بشكل خاص ، قد تكون هذه هى آخر فرصة لقوة المختطفين لترك مجمع السفارة دون حدوث ضرر لأحد فى ايران .

هـ ـ يجب أن تعلن ايران نفسها قرار الافراج وكأنه حدث درامى يدل على الرحمة والعطف بالرهائن ، وهى خطوة اتخذها الخمينى بنفسه . واجراءات الافراج عن الرهائن ستمنح ايران فرصة هائلة للدعاية ، تغطى بها الخمسة أشهر البائسة بمسحة من الأخلاق الحميدة والرحمة ، وهكذا تجدد ايران صورة الاسلام ، وهذا شىء يسعد كافة المسلمين فى العالم . وتهاجم الحكومة الأمريكية مرة أخرى لعدائها للقضايا العادلة ، وهذا لا يقلل من معركة ايران مع الحكومة الأمريكية ولا يمثل أى نوع من المهادنة معها » .

انتهت الرسالة .

« ولقد تلقيت رسائل أخرى من واشنطن بعد ذلك ، لكن حسب معلوماتى التى كانت ترد من طهران ، كانت كل خطوط الاتصال مع الأمريكيين قد تداخلت بشكل يبعث على اليأس . فلم يكن لدى الايرانيين أى فكرة عن المفترض فيه أن يتحدث معهم ، ولا حتى عن تلك الاشارات التى كانوا يتلقونها من الأمريكيين وتعبر

عن الموقف الأميركى الحقيقى » •

آمل أن تكون ، أيها القارىء ، قد قرأت هذه الصفحات المنقولة حرفيا بامعان • فلم يكن ما تطلبه أمريكا هنا من هيكل مجرد وساطة ، بل انهم اختاروه شخصيا للقيام بعملية خداع واستغفال لعقول الايرانيين ، مستغلا مشاعرهم الاسلامية ، بحيث يتعامل معهم كما لو كانوا مجموعة من الهنود الحمر البدائيين الذين يمكن الحصول على كل شىء منهم مقابل عقد من الخرز الملون • وبالطبع فقد تصور هيكل انه يدافع عن نفسه حين قال انه لم يقم بتنفيذ المهمة المطلوبة منه ، ولكن هذا ، فى الواقع ، ليس دفاعا على الاطلاق ، اذ أن المشكلة لا تكمن فى التنفيذ أو عدم التنفيذ ، وانما فى الطلب ذاته •

المشكلة الكبرى هى أن الأمريكيين « كانوا يأملون ان يوافق على هذه الخطوة » • فعلى أى أساس جاءهم هذا الأمل ؟ كيف تصوروا أنه سيقبل الاشتراك فى عملية خداع الحكام الايرانيين ومعاملتهم كأنهم أطفال ؟ من أين جاء كل هذا الأمل ، وكل هذا « العشم » ، فى هيكل ؟ وكيف توقعوا منه أن يتجاوز مهمة الوساطة ويقوم بتمثيلية خداعة على الايرانيين باسم الاسلام ، أى أن يخاطبهم وفى نيته أن يغشهم ويستغل سذاجتهم لصالح أمريكا ؟ وما هى نوع الروابط التى تربطه بهم حتى يطلبوا منه شيئا كهذا ؟

ان هيكل يستطيع أن يقول ، بالطبع ، انه ما دام قد نشر الرسالة فلا بد أنه كان حسن النية • ولكن الواقع انه لا يدرك ما يمكن أن تكشفه رسالة كهذه عن الطريقة التى ينظر بها الأمريكيون اليه • فمن المستحيل أن تطلب أمريكا من انسان عادى ـ مهما كانت مكانته ـ أن يعرض نفسه للأخطار من أجل أداء كل هذه الخدمات لصالحها • وحتى لو كانت أمريكا قد أساءت التقدير ، وتصورت خطأ أن هيكل يمكن أن يقوم بهذا كله لحسابها ، فان لهذا الخطأ ذاته دلالته البالغة ، لأنهم لا يمكن أن يكشفوا أوراقهم على هذا النحو

لأى شخص غير ملتصق بهم • ومن جهة أخرى فقد كان المفروض ، في حالة خطأ أمريكا ، ان يرد عليهم هيكل بشدة ، لا معتذرا فقط ، بل مستنكرا هذا الطلب بكل قوة • كان المفروض ان يرد عليهم ردا شديد العنف ، يقول فيه ، مثلا : هـــل تتصـــورون انـــكم تخاطبون شخصا يشتغل لحسابكم حتى تطلبوا منى شيئا كهـــذا ؟ وكيف تتخيلون اننى سأقوم بعملية خـــداع واستخفاف بعقـــول أناس وضعوا ثقتهم فى ؟ ولكن هيكل لم يفعل ذلك ، والدليل على هذا هو أن كل ما انتقده على الأمريكيين ، فى تعليقه على رسالتهم ، هو « ابتعاد تفكيرهم عن الواقع » • والدليل الأهم عـــلى أنه لم يستنكر ، ولم يوقف الأمريكيين عند حدهم ، هو انهم عادوا فبعثوا اليه برسائل أخرى •

ان هيكل لم يدرك النتائج الخطيرة للكلمات التى قالها ، وكل ما طاف بذهنه هو انه كان فى هذه القصة رجلا مهما يسعى اليه وزير الخارجية الأمريكى ويختاره شخصيا للتوسط بين دولتين ، احداهما أكبر وأقوى دولة فى العالم • وفى نشـــوة الاحساس بالسعادة الناتج عن الشعور بأهميته ، لم ينتبه الى المعانى الواضحة التى يستطيع أى عقل على قدر ضئيل من الذكاء أن يستخلصهـا من روايته •

وفى ضوء هذه الاعترافات الخطيرة ، غير المقصودة ، التى أدلى بها هيكل ، ألا يشعر المرء بالاشفاق حقا على الايرانيين الذين فتحوا له أبوابهم ، وأطلعوه على أخطر وثائق السفارة الأمريكية ، بعد أن خدعتهم شهرته المرتبطة بجمال عبد الناصر ، ثم خرج هو من الزيارة بكتاب تضمن كثيرا من السخرية من الايرانيين ، وربما خرج بما هو أكثر من ذلك ؟

اننى ، ادراكا منى لحساسية هذا الموضوع عنـد هيكـــل ، حرصت على ألا أستخدم نوع الألفاظ الذى يغضبه • ولكن الأهـم من ذلك أننى لم آت بشىء من عندى ، وكل ما فعلته هو أننى تركت هيكل يدين هيكل •

الفصل العاشر

من الذى هـدم الهيكل ؟

ما نوع ردود الفعل التى يمكن توقعها ازاء بحث كهذا الـذى كنت أقوم به طوال الفصول السابقة ؟ سأترك جانبا ردود الفعـل الايجابية الممكنة ، وأركز حديثى على ردود الفعل السلبية ٠

ان هناك فئة غير قليلة من القراء تفكر على النحو الآتى : ما دام هيكل قد أساء الى السادات ، وما دام هذا الناقد (كاتب هـذه السطور) قد استهدف كشف أخطاء هيكل ، اذن فنقده مفيد فى الانتقام من هيكل لصالح سياسة السادات ٠

وهناك فئة أخرى ، ربما كانت أكثر عددا ، تنظر الى المسألة بالطريقة العكسية : بما أن هيكل قد فضح عهد السادات ، وهـو عهد غير وطنى ، اذن فلا بد من الوقوف الى جانبه ، أما من يهاجم هيكل فى الظروف الراهنة فانه يضعف الجبهة المعادية للسادات ، بعد أن كانت قد انتعشت بظهور كتاب هيكل ٠ وواضح ان الأساس الذى يقوم عليه هذا النوع من التفكير هو مبدأ : عدو عدوى صديقى (عدوهم السادات وهيكل عدوه) ٠ وتبعا لهذا المبدأ يكون كاتب هذه السطور ، فى انتقاده لهيكل ، هو فى الواقع « عـــدو عدو عدوهم » ، أى عدو صديقهم ، أى عدوهم !

ومع اعتذارى للقارىء عن هذه الالغاز اللفظية الأخيرة ، فانى

أجد فى هاتين الطريقتين فى الفهم لب الخطأ الذى أحاول منذ البداية أن أقنع القارىء بألا يقع فيه • فموقفي ، كما قلت مرارا ، منصب على نقد جو فكرى عام ، وأسلوب كامل فى النظر الى عملية الحكم ، وعلاقة الحاكم بالمحكوم ، وطريقة اتخاذ القرارات الحاسمة • وهـذا الأسلوب أوسع نطاقا من أى فرد تحدثت عنه فى هذا الموضع أو ذاك ، بحيث لا يمثل هيكل وكتابه الأخير الا حالة صارخة ، حادة ، قريبة العهد ، من حالات ظاهرة أقدم وأوسع انتشارا وأقوى رسوخا بكثير •

واذا كان الساداتيون ، الذين ينتمى اليهم أصحـاب الرأى الأول ، قد قرأوا ما كتبت بامعان ، فسوف يدركون ان نقـدى للعهد الساداتي ربما كان أشد حدة من نقد هيكل ، لأنني أرجعت كثيرا من الظواهر الى جذورها الحقيقية ، ومن ثم فان أية محاولة يبذلونها للافادة مما كتبت هي ، كما قلت في مقالى الأول ، مرفوضة من أساسها •

أما أصحـاب الرأى الثاني ، الذى يضم عناصر من الفئات الناصرية واليسارية والقومية ، فانهم يرتكبون خطـأ جسيما حين يستعينون ، من أجل دعم موقفهم ، بشخصيات مثل هيكل • ان الكثيرين منهم ، بالطبع ، يصفون موقفى بأنه نوع من المثالية التى تفتقر الى الحس العملى : انه يبحث عن الصواب المطلق أو الخطـأ المطلق ، لا يعـرف كيف ينتهز الفرص السانحة ويستفيد من أى عنصر - بصرف النظر عن طبيعة هذا العنصر فى ذاته - من أجـل خدمة قضيته • هذا رد أتوقعه من الكثيرين ، بل أتوقع ما هـو أشد منه : فمن هؤلاء من سيهاجمنى بعنف ، مؤكدا ان هيكـل الآن يخوض معركة ضد المؤسسة الساداتية كلها ، ولا بد من تأييده ومساندته ، لا اضعافه ومحاربته •

ولكن هذا المنطق ، فى رأيى ، مرفوض من أساسه • فالمسألة ليست على الاطلاق مثالية مفرطة فى الابتعاد عن الواقع ، وانما هى - على عكس ذلك - موقف واقعى وعملى بكل معانى الكلمة • ذلك

لأننا لن نستطيع أن نفهم العوامل المؤدية الى السقوط الذى وصلنا اليه ، فى كافة جوانب حياتنا ، الا اذا حللنا بدقة أساليب التفكير والممارسة عند أولئك الذين تحكموا فى مصائرنا طوال عشرات السنين ، وانتقدنا هذه الأساليب دون أية مهادنة • وحالة هيكل تقدم لنا نموذجا بارزا لهذه الأساليب ، وان كان يظل رغم كل شيء مجرد نموذج ، لا يهمنا الا بقدر ما يدل على المناخ السياسى والفكرى العام الذى كان ينتمى اليه •

والواقع اننى لا أجد ، من منظورى الخاص ، أية فائدة ترجى من التحالف مع شخصيات اعتادت التقلب مع عهود الحكم ، بحيث لا ندرى ، اذا كانت تتخذ اليوم خطا وطنيا (سنقدم له تفسيرا فيما بعد) ، اى خط ستتخذه غدا • فاذا اضيفت الى ذلك حقيقة أهم من هذه ، وهى أن هيكل أسهم بدور أساسى فى ارساء دعائم الاتجاهات التى ينتقدها اليوم على السادات ، عندئذ يبدو التحالف معه أمرا محفوفا بالخطر ، ويبدو انقلابه الأخير على السادات موقفا لا علاقة له بالمبادىء السياسية ، وانما هو فى حقيقته ، ومهما أنكر هيكل ، انتقام شخصى يلبس رداء الوطنية •

وفى غمرة الغضب الذى اجتاح هيكل ، خلال فترة اعتقاله القصيرة الأمد ، نسى أشياء كثيرة ، ولم يتذكر الا انه يريد أن ينتقم ، وكان لديه بالطبع مخزون المعلومات الهائل الذى يضمن له انتقاما مدويا • وهكذا تحدث هيكل عن أخطاء السادات ، مدعمة بالوثائق التى تفضح أشياء كثيرة وخطيرة ، كما لو كان مشاهدا محايدا ، ونسى الدور الخاص الذى لعبه فى هذه الأخطاء • بل انه حين تدفق فى سرد المعلومات من مخزونه الكبير ، نسى ان الكثير مما قاله له دلالات عكسية ، ويأتى بنتائج سلبية على الجميع ، سواء عليه هو ، أو على الحكام الذين عاش فى عهدهم • ومرت عليه أشياء خطيرة انزلق اليها دون أن يدرك معانيها ، حتى ليشعر المرء ـ كما سنرى فيما بعد ـ إن غضبه قد سد عليه منافذ التفكير •

ولو كان هيكل متسقا مع نفسه ، لتمالك غضبه وبدأ كتابه بانتقاد نفسه • كان من واجبه تجاه ذاته ، وتجاه وطنه ، ان يقول : « لقد أيقظتني فترة السجن من غفوة طويلة •• كنت على خطأ في كثير من مواقفي طوال الأعوام الثلاثين الماضية ، وكان أكبر أخطائي مساندتي القوية للسادات ودعمي لحكمه ، وهأنذا أكفر عن أخطائي •• » لو كان هيكل قد بدأ بكلمات كهذه ، وصاغ كتابه في هذا الاطار ، لما تعرض لكلمة نقد واحدة مني أو من غيري ، بل لصفقنا له جميعا ، اذ انه كان سيقدم الينا عندئذ عملا رائعا ، يكشف الحقائق المخفية ، ويلقي ـ بموضوعية ـ أضواء باهرة على أخطر مرحلة في التاريخ العربي المعاصر •

ولكن هذه أمنية يستحيل أن تتحقق : اذ كيف تنزل الآلهة من عليائها وتعترف بأخطائها ؟ ان هيكل يرى نفسه أرفع حتى من الرد على منتقديه ، فكيف نتوقع منه نقدا ذاتيا شاملا ؟ على رسله اذن ، وليتحمل نتيجة موقفه •

لقد كانت لدى هيكل حاسة سياسية مرهفة جعلته يتخذ حتى النهاية موقف المحامي عن عبد الناصر ، وبدرجة أقل ، عن عصر عبد الناصر ، رغم انه شارك بدور رئيسي في بذل الجهد الضخم الذي أدى الى القضاء على أهم مقومات العهد الناصري في ١٥ مايو ، وكان من دعامات التحول الحاسم الذي كان لا بد ان يفضي في النهاية الى انهيار سياسة الحياد الايجابي ، والى الانحياز لأمريكا ، بكل ما يعنيه ذلك من انضمام الى صف أعداء الشعوب ومكافحي التحرر الوطني ، ومن تصالح وتطبيع مع اسرائيل ، ومن سيطرة للطبقات الطفيلية والبنوك الأجنبية • واذا كان هيكل قد انتقد هذه النتائج كلها بشدة في الآونة الأخيرة ، فان دعمه الحاسم للسادات ، الذي كان هيكل يعرف جيدا ميوله واتجاهاته واتصالاته ، كان لا بد ان يؤدي الى نتائج كهذه في المدى البعيد •

ولقد أتاحت هذه الحاسة السياسية المرهفة ذاتها لهيكل ان يقفز من مركب السادات في الوقت المناسب ، ويدخل من أجل

ذلك السجن فترة قصيرة • وكان دخوله السجن فى الواقع أكبر « ضربة حظ » نالها فى السنوات الأخيرة • فعندما أصدر « خريف الغضب » ، استطاع أن يكتسب لنفسه تأييد كل الساخطين على عصر الانفتاح ولصوص التموين والارتماء فى أحضان بيجن وتوصيل ماء النيل الى القدس وبيع آثار مصر ومواقعها التاريخية •• تحول هذا كله الى رصيد لصالح هيكل ، واعترف هو نفسه بذلك حين قال فى الفصل الأول من كتابه ، معلقا على مهاجمة السادات له : « حين يجعل رئيس الدولة من أحد مواطنيه هدفا دائما لهجماته ، فهو بذلك يرفع من قدره ولا ينتقص منه • وبالتالى فلعلى لا أتجاوز اذا قلت اننى على نحو ما مدين للرئيس السادات بما أضافه – دون أن يقصد – الى قيمتى فى الساحة الوطنية والساحة الدولية على السواء » • وبصرف النظر عما يمكن ملاحظته بسهولة من أن تضخيم الذات واضح فى هذا الكلام ، فان الحقيقة الواقعة هى أن هيكل قد أصبح فى نظر الكثيرين « بطلا » وطنيا ، وأخذ الوطنيون الشرفاء يتبنون قضيته ، اما عن كراهية للسادات تحتم التصفيق بلا تفكير لكل من يهاجمه ، واما عن عجز عن الربط بين حلقات التاريخ • وفى المقابل ، فان خصومه من الساداتيين أخذوا يهاجمونه بعنف ، مما جلب له مزيدا من الشعبية • وحين اتخذت الحكومة بعض الاجراءات القمعية ، باصدار تشريع استثنائى آخر يمنع أى « مسئول » من الافشاء بأسرار كان مطلعا عليها ، تحول هيكل ، الذى طالما برر الحكم الفردى وصاغ له النظريات البارعة ، الى شهيد لحرية الرأى والديمقراطية المهدرة •

ان قصة هيكل مع الحرية والديمقراطية قصة طويلة ، ليس هنا مجال الكتابة عنها ، وكل ما نود أن نفعله هو أن نركز انتباه القارىء على جوانب معينة من الانتقادات التى وجهها ، مؤخرا ، الى السادات ، والتى وقف فيها يدافع بقوة عن هذه المبادىء السامية ، ثم نسأل أنفسنا : هل كان هيكل ، فى انتقاداته

الأخيرة ، يدين السادات وحده ، أم يدين نفسه أيضا ، ويدين كل المناخ السياسى الذى كان يعمل فيه ؟

يتحدث هيكل فى الفصل الخامس من كتابه عن الهدايا التى كان السادات يتلقاها فيقول : « وخلال سنوات عمله فى المؤتمر الاسلامى كان السادات يتلقى الكثير من الهدايا فى عالم يؤمن بالهدايا كوسيلة من وسائل توثيق الصلات » . فاذا تساءلنا : أى عالم كان يقصد ؟ أتانا الجواب سريعا : « لكن الحق يقال انه كان كريما فى تقديم الهدايا قدر كرم الآخرين فى تقديمها له . لقد قدم أنور السادات فى تلك الفترة أكثر من سيارة « كاديلاك » كهدايا لعبد الحكيم عامر » . اذن فالمقصود عالم أقطاب ثورة ٢٣ يوليو ، أولئك الثوار الذين استهدفوا تطهير مصر من « فساد » الأحزاب القديمة ، والذين يهدى أحدهم الى الآخر بعضا مما أنعم الله به عليه ، هو مجرد « سيارات » كاديلاك تقدم الى الرجل الثانى بين الثوريين ، الذى وصفه هيكل فى الموضع نفسه بأنه « كان فى نفس الوقت أقرب أعضاء مجلس قيادة الثورة الى قلب جمال عبد الناصر » .

حسنا ، ان مثل هذه الأشياء تحدث فى أحسن « الثورات » ، ولكن ألم تكن هذه الواقعة تستحق من هيكل تعليقا على النظام الذى سمح بهذا ، وجعل من الهدايا وسيلة لتوثيق الصلات ؟ هل هذه هى الدروس التى يقدمها فلاسفة الثورة للأجيال الجديدة ؟

ينتقد هيكل العهد الساداتى على كثير من ممارساته اللاديمقراطية ، وهو قطعا على حق فى هذا النقد ، ولكنه لا يقدم اشارة واحدة الى الاطار التاريخى الذى ظهرت فى ظله هذه الممارسات ، ويصورها كما لو كانت قد ابتدعت فى عهد السادات .

فهو يعيب على السادات اصداره تشريعا يمنع الذين « أفسدوا الحياة السياسية قبل الثورة أو بعدها » من النشاط

السياسى ، وينسى أن تشريعات كهذه كانت تصدر من آن لآخر طوال عهد الثورة ، كان أولها ما صدر فى عام ١٩٥٣ تمهيدا لحل الأحزاب · وهكذا فان تشريع السادات حلقة فى سلسلة طويلة من الاجراءات القمعية ضد التجربة الحزبية فى مصر ، ولم يكن السادات فى اجرائه هذا الا ابنا مخلصا للتراث الذى تربى سياسيا فى ظله · وما دام هيكل قد وجد فى التشريع الساداتى اجراء تعسفيا ـ وهو بالفعل كذلك ـ فلماذا سكت عن الاجراءات المماثلة السابقة ، بل لماذا أيدها ودعمها بتنظيراته ؟ هنا نرى هيكل واحدا ضمن سلسلة طويلة من رجال الثورة الذين كانوا يؤيدون الدكتاتورية وهم فى الحكم ، ثم يتحولون بقدرة قادر الى ديمقراطيين متحمسين عندما يتم استبعادهم ، من أمثال البغدادى وكمال الدين حسين وهويدى ، الخ ···

وهو يسخر من تلاعب السادات فى الدستور ، وتعديل المادة الخاصة برئاسة الجمهورية ، بحيث تتجدد مدة الرئاسة الى ما لا نهاية ·· هل كانت هذه هى المرة الأولى التى حدث فيها ذلك ؟

بل انه يلاحظ فى الفصول الأخيرة ، عن حق ، ان السادات كان لديه دستور لا بأس به ، ولكنه لم يكن يتقيد به ··· ألم تكن هذه فرصة لنقد مبدأ التلاعب بالدستور بوجه عام ، ولاعطاء القارىء درسا فى أهمية الدساتير ووجوب احترامها فى كل العهود ؟

وحين يسخر هيكل من استفتاءات السادات ، التى كانت نتائجها مضمونة مقدما ، والتى كان يلجأ اليها لاضفاء صبغة قانونية زائفة على اجراءات أو تشريعات مخالفة بطبيعتها لروح القانون والدستور ـ فهل كان هيكل يهاجم مبدأ الاستفتاء ذاته ، أم كان يهاجمه فقط عندما طبقه خصمه السياسى ؟ ألم يكن الاستفتاء مبدأ معمولا به قبل عهد السادات بوقت غير قصير ؟

ومما يلفت النظر أن هيكل قد انتقد بشدة ، فى كتابه

الأخير ، طبيعة التنظيمات السياسية غير الشعبية التى تخلقهـا السلطة لدعم مركزها ، ويشير الى عيوبها بقوله : « لم تكن لدى حزب مصر - على سبيل المثال - ولا الحزب الوطني بعده ، من القوة السياسية الا ما أسبغه النظام بالسلطة عليهم ليكونوا واجهـات يتستر وراءها الفعل الحقيقى • وكان أكثر من نصف أعضاء مجلس الشعب من هؤلاء الذين غيروا آراءهم مع تغيير الحكومة لسياساتها • كانوا اشتراكيين فى الوقت الذى كان من الحكمة فيه ان يكونوا أعضاء فى الاتحاد الاشتراكى العربى • وأصبحوا رأسماليين عندما انفتحت الأبواب لرأس المـال الأجنبى • وكانوا أصدقاء للاتحـاد السوفيتى حين كان ذلك ملائما ، ثم انتقلوا بسرعة - حين تغيرت الظروف - الى الصداقة مع الولايات المتحدة • وكانوا دعاة الحرب مع اسرائيل ، وبعد المبادرة اصبحوا كلهم من دعاة السلام » •

هذا تشخيص سليم بغير شك ، ولكن هل ينطبـق عـلى أعضاء حزب مصر والحزب الوطني وحدهم ؟ ألم ينتقـل عـدد كبير من الأعضاء قبل ذلك ، من هيئة التحرير الى الاتحاد القومي الى الاتحاد الاشتراكى ، رغم اختلاف المبادىء والأسس فى كـل حالة ؟ ألم يكونوا بدورهم رأسماليين فى البداية ، ثم أعلنـوا ولاءهم للاشتراكية حين أصبحت سياسة رسمية ؟ ان جوهـر نقد هيكل كان ينبغى أن ينصب على أسلوب الحكم الذى يفرض تنظيما شعبيا مقلوبا ، يسير نشاطه من القمة الى القاعدة ، على حين ان التنظيمات ، لكى تكون شعبية بحق ، لا بد لها أن تبدأ بالقاعدة وتنقل رغباتها ومطالبها الى القمة • ومثل هذا الأسلوب لم يبدأ فجأة فى عهد السادات ، بل كانت له مقدمات طويلة •

أما الحديث عن أولئك الذين كانوا أصدقاء للاتحاد السوفيتى حين كان ذلك ملائما ، ثم انتقلوا عندما تغيرت الظروف الى الصداقة مع الأمريكان ، فانه حديث جرىء حقا ، وخاصة حين يصدر عن هيكل • وأرجح انه كتب هذا الجزء وهو جالس أمام المرآة !

وحين وصف هيكل عملية اعتقاله وصفا دراميا مفصـلا ،

كان يتحدث في الواقع عن نقطة تحول هامة في حياتـــه ، جعلته يتخذ قراره بأن يتكلم • والأمر المذهل حقا هو أن هذا الاعتقال المخفف جدا ، سواء من حيث مدته أو أسلوب معاملته في السجن ، لم يكن مما يمكن مقارنته على الاطلاق بما حــدث لألوف الأشخاص من قبل ، ممن ذاقوا أشد الأهوال لمدد أطول كثيرا ، وفي ظروف أصعب ألف مرة • ومع ذلك فان هيكل يصور حـــادثة اعتقاله كما لو كانت شيئا فريدا في نوعه ، ولم يحاول أن يعالجها ، ولو في سطر واحد ، بوصفها ظاهرة عامــة ونتيجة ضرورية لأسلوب معين في الحكم •

وواقع الأمر أن هيكل لم ينطق بحرف حين كانت الاعتقالات تحدث جزافا ، وتنتهي في حـــالات معينة بعاهـــات مستديمــة للمعتقلين ، وربما بموتهم • لم يحركه امتهـــان كرامة الانسان أو لجوء فئة معروفة من السجانين الى ممارسات غير آدمية ، وكل ما دافع به عن نفسه أنه هو الذي صـــاغ عبارة « زوار الفجر » •••
ومتى ؟ عندما كان الانهيار قد حدث ، وكان النظام في حاجة الى ما يهدىء مشاعر الشعب المجروح بالهزيمــة عن طريق ممارســة محدودة للنقد الذاتي ، أما في ذروة أيام القمع فلم يحرك ساكنا •

ويقدم الينا هيكل أوصافا وتفــاصيل طـــريفة عن احساس السادات بالعظمة وبأن الآخرين الى جواره « أقزام » ، وعن عزلته المتزايدة وتناقص عدد مستشاريه يوما بعــد يوم ، ولكنه يصف هذه الظاهرة كما لو كانت عيبا شخصيا في السادات • ولو تعمق في الأمر قليلا لأدرك أن أسلوب الحكم الفردي لا بد ان يؤدي الى هذا النوع من جنون العظمة • فحين يمسك فرد واحد ، لمـــدة سنوات عديدة ، بسلطات هائلة في يديه ، وحين يسمع كلمات الموافقة والطاعة من كل المحيطين به ، وحين تملأ صوره وأخبــاره وكلماته أجهزة الاعلام صباح مساء ، وحين تتحول أية رغبة له الى واقع فعلي بمجرد ان ينطق بها ، وتتقرر المصائر والسياســـات بكلمات من قلمه ••• حين يحدث ذلك كله لفرد واحــد ، لابد أن

ينتهى تكوينه النفسى الى عدم التوازن • وكم ألفت كتب عن هــذه الظاهرة فى حالة عدد كبير من الحكام الفرديين • ومع ذلك فـان هيكل يقدمها الينا كما لو كانت تعبيرا عن اختــلال فى شخص السادات كفرد ، ويتجاهل الجانب العام للظاهرة ، الذى يجعلهـا نتيجة ضرورية لانفراد انسان واحد بعدد هائل من السلطات •

ان القضية ليست قضية السادات وحده ، ولا عبد النـاصر وحده ، بل قضية أسلوب الحكم الذى لا يستند الى تمثيل شعبى حقيقى ـ ذلك الأسلوب الذى أدركه هيكل فى حالــة السادات ، ولم يدركه قبل ذلك • والأمر المؤسف هو انه كان واعيــا به ، اذ كان هو الذى نصح السادات ، بعد انتصاره فى حركة التصحيح ، بأن يحدث الناس فى خطابه الى مجلس الأمة عن قضية الديمقراطية ، لأنها هى « القضية التى تهم الناس مباشرة فى هذه الظروف • ان الناس يريدون أن يسمعوه وهو يؤكد لهم ضمانـات حرياتهم • لقد أفلتوا بالكاد من شبح دكتاتوريـة كان يمـكن أن تصل فى تجاوزاتها الى حد بعيد »(١) • اذن فقد كان هيكل يعلم ان الناس تواقــة الى الديمقراطية ، وان الجناح الذى هــزم ، والذى هــو الملتصق بعبد الناصر والمنفذ لسياسته ، كان دكتاتوريا ، فهــل حاول فى ذلك الحين ان يدافـــع عن المبدأ الذى تحـول الآن الى داعية له ، أم ان الديمقراطية لا تجد من ينادى بها الا حين يكون الحاكم فى موقع الضعف ، بينما تسحق بالأقدام بمجرد احساســه بالقوة ؟

ان هيكل على العكس من ذلك ، طلع علينا ـ خــلال فترات الشعور بالقوة ـ بنظرية « الديمقراطية بالموافقة » • ويعنى بها أن يكون الحاكم على وعى بمطالب الجمـاهير وأمانيها ، فيحققها لهـا ، وعندئذ لابد أن يكون تصرفه ديمقراطيا ، لأن الجمـــاهير ستوافق حتما عليه ، ولأنه تعبير صادق عما تريده الجماهير • ويدافع هيكل، فى حديث قريب ، عن هذه الفكرة ، مؤكدا انه لم يقل بها الا بعد

(١) انظر الفصل الخامس من « خريف الغضب » •

أن اتخذت القرارات الكبرى المعبرة عن موافقة الشعب ، كتأميم قناة السويس والتطبيق الاشتراكي وبناء السد العالى ، الخ ٠٠٠ ولم يدرك هيكل انه حتى هذه القرارات الكبرى ينبغي أن تستند قبل اتخاذها لا بعده ، الى ارادة شعبية ، أما لو اقتصر الأمر على اتخاذها من أعلى ، فستظل معرضة للخطر ٠ وهذه بالفعل كانت الغلطة الكبرى للعهد الناصرى : فقد اتخذ بالفعل قرارات كبرى وحاسمة ، ولكنها لم تنبثق عن الشعب وانما أتت من أعلى ، وظلت معتمدة على بقاء الزعيم الذى أوجدها ، فلما اختفى ، انهارت بعده وكأنها بيت من ورق ٠

وهكذا كانت نظرية « الديمقراطية بالموافقة » بدعة هيكلية ينكرها أى حس ديمقراطى سليم ٠ بل اننا لا نعدو الصواب اذا قلنا انها سلاح ذو حدين : اذ أن السادات كان يؤكد ، من جانبه : ان « ٩ر٩٩٪ من شعبى يؤيدنى فى زيارة القدس ، وفى الصلح والتطبيع مع اسرائيل ، ولا يعارضنى فى ذلك الا مجموعة من الأرذال ! ٠٠ » أترون الى أين يمكن أن تؤدى بالشعب أفكار خطيرة كالديمقراطية بالموافقة ؟

ان الحكم الفردى ، حتى لو بلغت انجازاته عنان السماء ، يظل معرضا للوقوع على الدوام فى كوارث ٠ وما كانت كارثة ١٩٦٧ ـ التى لم يعرض لها هيكل فى كتابه الا بطريقة سريعة وفى مساحة تقل بكثير عما خصصه للحديث عن مسكن السادات أو زوجات أبيه ـ ما كانت فى حجمها وفى فداحتها الا نتاجا للحكم الفردى ٠ والواقع ان مشكلة هذا الأسلوب فى الحكم هى أن خطأ الفرد فيه يمتد الى أمته بأسرها ، على حين أن تأثير الخطأ فى الحكم الديمقراطى يكون أضيق نطاقا بكثير ، فضلا عن أن احتمالاته أقل ، وامكانية اصلاحه أكبر ٠ ومن هذا النوع كان خطأ عبد الناصر فى التقدير عام ١٩٦٧ ، وخطأ السادات فى أسلوب التفاوض بعد حرب ١٩٧٣ ، وزيارته للقدس عام ١٩٧٧ ٠ انها كلها قرارات فردية لحاكم فرد ، معرض كسائر البشر للخطأ ، ولكن

خطام يتحول ، بسبب طبيعة حكمه ، الى كارثة ·

وتلك كلها مسائل لم يحاول هيكل ان يتطرق لها ، بل عرض فى الفصل الأخير من كتابه لاخطاء السادات كشخص ، ولم يتناول أسلوب الحكم الذى كان السادات أحد مظاهره · ومن هنا شاع التفاؤل فى صفحات الكتاب الأخيرة ، ما دامت الشخصية «الشريرة» قد اختفت ، وحلت محلها شخصية ذات مزاج مختلف ·

والآن فلقد كنت طوال حديثى السابق أتحدث بلسان المفكر السياسى أو الاجتماعى ، ومع ذلك فانى لا أستطيع أن أقاوم اغراء العودة ، فى نهاية هذا الحديث الطويل ، الى ممارسة مهنتى الأصلية : الفلسفة ! فحين تأملت مواقف هيكل وأساليب تفكيره ، توصلت الى مجموعة من النقاط أستطيع أن أطلق عليها اسم « مبادىء الفلسفة الهيكلية » · فما هى هذه المبادىء ؟

المبدأ الأول : فى البدء كان النسيان :

ان المتأمل لتقلبات هيكل وتغير مواقفه يستطيع ان يدرك بوضوح ان النسيان أساس ضرورى يعتمد عليه هذا النوع من المفكرين من أجل اقناع الناس بآرائهم · ولقد ضربنا أمثلة واضحة ، بل صارخة ، لتحولات جذرية طرأت على مواقف هيكل من القضايا المصرية للأمة العربية فى ثلاث سنوات متعاقبة : ١٩٧٠ ــ ١٩٧١ ــ١٩٧٢ ، بحيث بدأ هذه السنوات بموقف راديكالى متشدد ، وانتهى ــ بعد تدرج مرسوم بعناية ــ الى موقف شديد الاعتدال ، وانعكس اتجاه تأييده المعلن ، من الاتحاد السوفيتى الى الولايات المتحدة ، واختلف تصوره للحرب المنتظرة ، الخ ··· مثل هذه التحولات الجذرية لا يمكن أن يجرؤ أحد على تقديمها الى الناس فى سنوات متعاقبة كهذه الا اذا كان واثقا من أن الناس سرعان ما ينسون ، وانك اذا كررت موقفك الجديد والححت عليه بما فيه الكفاية ، فلن يعود فى ذهنهم سواه ، ولن يحاسبك أحد على ما قلت من قبل ·

انها عقلية تحتقر ذكـــاء الجماهير وتفترض انهـــا تعيش ، وتفكر ، يوما بيوم ، وتتصور ان كل ما يحتاج اليه السياسى هو أن يكرر الاكذوبة لكى تصبح حقيقة • ولو تصور أحد أن الكاتب نفسه هو الذى ينسى مواقفه السابقة ، وليس الجمهور ، لكان فى ذلك مخطئا أشد الخطأ • فمثل هـــؤلاء الكتاب ، ومعهم الحكـــام الذين يعملون هم لحسابهم ، يتذكرون كل شيء ، ولكنهم يؤمنون بأنهم هم وحدهم الأذكياء ، ويسلمون تسليما كاملا بغباء الآخرين • وفي ضوء هذا المبدأ نستطيع أن نفسر جرأة هيكـل عـلى اتخـاذ عدد كبير من المواقف التي كانت متعارضة فيما بينها تعارضـــا شديدا • اذ بدأ برفض التجربة الحزبية ، وأيد عبد الناصر بكـل قوة ولم يقل شيئا عن ممارساته القمعية ، ثم شـــارك فى تحطيم أقرب أعوان عبد الناصر ، ومهد الطريق بكل ما يملك من قـــوة لعهد هـــدم كل الأسس التى قامت عليها سياسة عبد الناصر • وســـاند حياد عبد الناصر الايجـــابى ، وتوجهـــه بالتالى نحـو السوفيت ، ثم توجه السادات نحو أمريكا ، ثم عـــاد أخـــيرا يتباكى على أيام التوازن الاستراتيجى بين السوفيت والأمريكان • ومشى مهللا ومصفقا فى جنازة الديمقراطية فى النصف الأول مـن الخمسينات ، وشارك فى تحديد وتبرير الاتجـــاهات الرئيسية للحكم الفردى ، ثم بكى لوعة على الديمقراطية الضائعة فى آخر عهد السادات • ورفع السادات فى أول عهـــده الى عنان السماء ، ثم اتضح لنا أخيرا انه كان يعرف عن طفولة السادات وشبابه وكهولته معلومات مشينة مخجلة ••

أكان فى استطاعة أى انسان ان يتقلب بين هذه المواقف لو لم يكن يرتكز على مبدأ أساسى ، هو ان الانسان حيوان ناس ، وان فقدان الذاكرة صفة مشتركة بين جميع البشر ، وان عقول الناس تعمل يوما بيوم ، ولا تربط الماضى بالحاضر ، أو الأمس باليوم ، وانه هو وحده الذكى ، « الفهلوى » ، الذى يستطيع أن يغير مواقفه دون أن يتنبه لذلك أحد ؟

المبدأ الثاني : ديمقراطية « أنا وحدى » :

فى حديث قريب العهد لهيكل(٢) ، يتحدث ببطولة عن موقف حازم وقفه ضد وزير طالبه بأن يعرض مقالاته على الرقابة قبل ثلاثة أيام من نشرها ، فرفض هيكل بشدة ، وأرسل اليه يقول : « اننى لا أستطيع أن أكتب وفى ضميرى ان ورائى من سوف يجرى بقلمه على ما أكتب » ٠٠٠ ثم يقول : « اننى لم أكتب بانتظام ، وتحت عنوان : بصراحة ، الا بناء على اتفاق مع الرئيس عبد الناصر الا يخضع شىء مما أكتبه للرقابة » ٠

موقف رائع ، بطولى ، أليس كذلك ؟ ومع ذلك فان دلالات هذا الموقف محزنة ومؤسفة ، والمؤلم حقا ان هيكل يتحدث عن هذا الموقف فى معرض التفاخر ، ودون أن يلمح من ورائه شيئا آخر ٠ ان هيكل هنا يجعل نفسه فئة قائمة بذاتها ، فئة مستثناة ٠ فجميع الكتاب الآخرين يخضعون للرقابة ، أما هو فقد اتفق مع عبد الناصر على أن يكتب بلا رقيب ٠ وأعجب ما فى الأمر انه على وعى بالاختناق الذى يصيب الكاتب من جراء الرقابة ، ويدرك بوضوح كيف أن قلم الرقيب يشل ضمير الكاتب ، ومع ذلك فانه لم يحاول ان يعالج القضية بالنسبة الى الجميع ، أو يكتب الى المسئولين منتقدا « مبدأ » الرقابة ، وانما كتب يقول : لابد ان أنال حريتى ٠٠٠ أنا وحدى ! وتكتمل المأساة حين يصور هذا الموقف كما لو كان بطولة عظيمة ، وتنشره الصحيفة المعارضة دون أن تعلق عليه أو تستخلص دلالاته ٠٠

ولقد أثبت هيكل فى مواقف أخرى كثيرة أنه يقف بحزم ضد التصرفات الاستبدادية عندما تمسه شخصيا ، أو تمس المقربين منه ، ويتمسك « بالاعفاء الشخصى » من تجاوزات الحكام ، ولكنه لا يحاول الدفاع عن « المبدأ » نفسه ، أو أن « يحب لأخيه ما يحبه لنفسه » ، كما تقول النصيحة المشهورة ٠ فحقوق الآخرين

(٢) حديث مع صلاح عيسى ـ الأهالى ، ١٩٨٣/٦/١ ٠

لا أهمية لها ما دام حقه الخـــاص مكفولا ، واذا حلت مشكلته الشخصية ، مع أجهزة قمع الحريات ، فان كل شيء يصبح عـــلى ما يرام ... هذا ، في نظر هيكل ، هو الوضع الطبيعي ، أما ما يتجاوز ذلك فلا يهمه في شيء .

هكذا تصرف هيكل في واقعة أخرى ورد ذكرهـــا في مقال سابــق ، هي واقعـــة اعتقال أجهـــزة عبد الناصر لزميل له في « الأهرام » ، فقد ثار ثورة فردية ، لأن الموضـــوع مس كرامته وسلامة المقربين منه ، أما المبدأ العام ، مبدأ عـــدم جواز اعتقال البشر بلا سبب ، وبلا محــــاكمة ، فلم يتطرق اليه من قريب أو بعيد .

ومثل هـــذا ينطبق على موقفــه من اعتقـــاله في آخـر أيام السادات : فقد تحدث عن « محنته » الشخصية ولم يذكره السجن بألوف الضحايا الذين سجنوا قبله في « جرائم » الرأي أو العقيدة ، فلم يقل كلمة واحدة عن مساويء الاعتقال بوجه عام ، ولم يسهم برأي واحد من أجل ضمان الحريات الشخصية للجميع على حـــد سواء .

وعلى العكس من ذلك ، فان هيكل اكتسب جزءا كبيرا من مجده بفضل هذه الديمقراطية التي كـــان يتمتع بهـــا وحده ، في الوقت الذي يختنق فيه الآخرون . وكـــم من آراء كان يعرضها ، طوال الوقت الذي كان فيه هو وحده المتحرر من الرقابة ، كان من الممكن نقدها وتفنيدها وهدمها بسهـــولة تامـــة ، لو اتيحت فرصة مماثلة للكتاب المعارضين . وكـــم من « نظرية » جادت بهـــا قريحته ، أو « تبرير » من نتاج عبقريته ، كان من الممكن اثبات تفاهته بيسر لو كان الناس قادرين على المناقشة الحرة . غير انه ظل وحده في الميدان ، مستمتعا بانتصـــاره على خصم مغلول الأيدي ، وظل يغزو عقـــول الناس صباح كل جمعـــة ، دون منافس أو معترض . والحق أن أي مفكر حقيقي يستحيل ان يقبل لنفســه هذا الاحتكار الفكري ، أو أن يخطو خطوة واحدة في حلبة هـــذا

الصراع غير المتكافيء : فهو لا يرضى لنفسه بأن يعلو صوته بينما الأصوات الأخرى مكتومة ، أو بأن يتفلسف شاهرا سيفه على أفواه مكممة والسنة مربوطة • ومجـــرد قبول هيكل بهذا الوضع ، واصراره على أن يحقق لنفسه ، هو وحده ، مثل هذه الحقـــوق الديمقراطية ، يدل على انه في صميمه بعيـــد كـل البعـد عـــن الديمقراطية •

أيريد القاريء مثلا آخر ، قبل أن ننتقل الى النقطة التالية ؟ ان هيكل يشير ، في الفصل الخامس ، وفي معرض التفاخر كمـا هي العادة ، الى أن عبد الناصر كان يبدأ دائما بسؤاله عن رأيه في الموضوع الذى يناقش ، لأنه كان يتكلم بغير حرج ، « وكان يشك في أن بعض الآخرين عادة يحومون حول الموضوع حتى يتعرفـــوا على رأيه (رأى عبد الناصر) فيه ، ثم يسبقوه الى ما يتصورون انه يريده » •

هذه هي النتيجة المأساوية للدكتاتورية : الخوف ، النفـاق ، تملق الزعيم والاستجابـة لرغباته بـدلا من تحقيـــق مصلحـــة المجتمع ، الامتناع عن المعـارضة ـ وفي مقـــابل ذلك ، شـــجاعة المتكلم الأوحد ، الذى يستطيع هو وحده ان يتكلم « بغير حرج » • هل هذا أسلوب في الحكم يمكن أن يقيم ثورة أو يبني مستقبـلا أو يكون رجالا ؟

ومع ذلك فان الموضوع يمر على هيكل ، كما هي العـــادة ، دون أن يتنبه الى أن ما يعتقد انه سبب للفخر ، هو في الحقيقة أمر مؤسف ومخجل • فهل من تعليل لعدم التنبه الدائم هذا ؟ انـــه بالقطع ليس نقصا في القدرة على الفهم والتحليل ، وانما هـــو ، ببسـاطـــة ، اعتياد على العيش في جو الحكم الفردى والاستمتاع بمزاياه الشخصية ، يؤدى في النهاية الى أن تصبح أكثر جـــوانب السلوك بشاعة أمورا عادية ، مألوفة ، ليس فيها أى خطأ •••

المبدأ الثالث : الوطنية بأثر رجعي :

أسهل أنواع الكفاح وأقلها تكلفة هو أن تكافح بعد فـــوات

الأوان ، بينما تظل متفرجا ، أو تتواطأ ، عندما تكون الأحداث ساخنة ، يمكن التأثير عليها وتغييرها الى الأفضل . فبهذا اللون من الكفاح بعد فوات الأوان ، تبدو أمام الناس وطنيا ، مع انك لم تفعل شيئا .

وفي حالة هيكل لم يقتصر الأمر على الكفاح بأثر رجعي ضد سياسات كان أثناء حدوثها متفرجا ، بل انه كافح بعد فوات الأوان ضد سياسات كان هو نفسه قد أسهم بنصيب كبير في صنعها . ومثل هذا الكفاح ليس سهلا قليل التكلفة فحسب ، بل هو أيضا كفاح خادع ، اذا شئت ان استخدم أخف الألفاظ .

وسنضرب لهذا الأسلوب في الكفاح ، وفي اظهار الوطنية ، بضعة أمثلة قد لا تحتاج الى شرح مفصل ، لأنها سبق أن عرضت بتوسع من قبل . فكل ما يقوله هيكل الآن عن الافتقار الى الديمقراطية وانتهاك الدستور والقوانين الاستثنائية ، الخ ... هو كفاح بأثر رجعي ، لأنه لم يكن يدعو اليه في الوقت المناسب ، بل نادى به ــ فقط ــ بعد أن كان كل شيء قد انتهى . وكما رأينا من قبل ، فقد كان لهيكل دور هام في تهيئة الأذهان لطرد الخبراء السوفيت والتشكيك في قيمة أسلحتهم ، وكذلك في الدعوة الى تحييد أمريكا . وبعد أن تحقق ما كان يدعو اليه ، ثم استخلص النظام الحاكم نتائجه الطبيعية منه ، عاد هيكل فنعى على السادات تعاونه مع الأمريكان وتجاهله للسوفيت ... ومتى حدث ذلك ؟ بعد أن أصبح اصلاح الأمر مستحيلا ، وفرض الأمر الواقع الجديد نفسه على الجميع . أما في الوقت الذي كان من الممكن فيه تدارك الأمر ، فان كتابته كانت تسير في الاتجاه العكسي .

وبالمثل ، فان حملته الراهنة على ادارة حرب أكتوبر سياسيا ، وعدم تطويرها عسكريا ، وافشاء سر الحرب المحدودة الى الأمريكان ، كل هذه وطنية بأثر رجعي ، لأن الأحداث انتهت منذ زمن بعيد ، أما في الوقت الذي كان يمكن فيه التأثير في مجرى تلك الأحداث ، فقد كان هيكل يدعو بكل صراحة الى الحرب

المحدودة ، والى التفاهم مع الأمريكان .

وأخيرا ، فان نقده للاتجاهات التسلطية أيام عبد الناصر لم يصبح مسموعا الا أيام السادات ، بعد أن أصبحت مراكز القوى في حالة دفاع عن النفس . أما عندما كان هؤلاء الجبابرة يسومون الناس عذابا ، ويعتقلون الآلاف بلا محاكمة ، فلم نسمع له صوتا . وهكذا تأتي البطولة دائما متأخرة ، ويظل هيكل مشاركا في الخطأ أثناء حدوثه ، ثم يستنكره بعد فوات أوانه من أجل كسب النقاط ورفع الأسهم وزيادة رصيد الوطنية على غير أساس.

كلمة أخيرة :

أكاد ، في لحظتي هذه ، أسمع احتجاج القارىء ، وخاصة لو كان شابا ، وهو يقول : لقد هدمت كل مقدساتنا ، ولم تترك الا حطاما ، وشككت الناس في كل شيء وكل شخص ، ولم تقدم بديلا ايجابيا .

وردي على هؤلاء هو انني لم أستهدف ، كما قلت مرارا ، أي شخص بعينه ، وسيكون قد أساء فهم مقصدي كل من يتصور انني أريد أن أهدم اسطورة هيكل أو أكشف عيوب هذا الحاكم أو ذاك . فهذه نتائج يمكن أن تأتي بطريقة عرضية أو هامشية . أما الهدف الأصلي الذي كنت أسعى اليه فهو أن أحث قرائي على أن يفكروا فيما يرونه حولهم بوعي وتبصر . ولا بأس خلال ذلك ان تتزعزع مقدسات كثيرة ، فأول مراحل العقيدة الصحيحة هي تحطيم الأصنام . ولا بأس من جرعة كبيرة من النقد والتشكك في عصر أصبحنا فيه ممنوعين من أي اعتراض أو احتجاج .

ان هدفي الحقيقي ليس هيكل ولا السادات ولا عبد الناصر ، بل هو عقولكم أنتم . فمن هذه العقول تأتي الهزيمة أو النصر .

ولقد كتبت هذه الصفحات كلها في أيام قليلة ، بعد نشر كتاب هيكل مباشرة . وكنت طوال كتابتها أعجب لحماستي التي تتدفق وكأنني أريد أن أسوي حسابا طويلا قديما ، بل ان بعض

القراء تصوروا بالفعل ان بيني وبين هيكل ثأرا خاصا ، وذلك جريا على عادتنا في تفسير كل شيء بعوامل شخصية •

وحقيقة الأمر هي أن هناك بالفعل حسابا أردت أن أسويه ، ولكن ليس مع هيكل أو أي شخص آخر بعينه ، بل مع أسلوب في الحكم وفي التفكير وفي معاملة الانسان للانسان كنت أرفضه على الدوام •

كان يكفى ان أسير في شوارع القاهرة كل صيف ، وأرى الفارق بين قاهرتي الجميلة التي شهدتها في طفولتي وصباى ، وقاهرة اليوم التي خربت بأكثر مما يستطيع عدو مجنون أن يفعل ••

كان يكفى ان أقارن بين تعليمي في طفولتي والقشور التي يتلقاها أطفال اليوم بأقل الأساليب أمانة واخلاصا •••

كان يكفى أن أتأمل تعاسة أبناء وطني حين يبحثون عن العلاج ، أو عن مسكن ، أو عن وسيلة اتصال •••

كان يكفى أن أتأمل انهيار آمالنا الوطنية والقومية ، منذ أن صعدت لتناطح أقدم امبراطوريات الأرض ، حتى هبطت الى حضيض « ازالة آثار العدوان » بعد أن أصابتنا هزيمة نكراء على يد دولة عميلة هزيلة يسكنها خليط لا يزيد مجموعه عن سكان بلدة متوسطة في وطني •••

كان يكفى أن أرى طائرات العدو تمرح فوق سماء بغداد ، وجيوشه تصول وتجول في شوارع بيروت •••

كان يكفى أن أتأمل هذا كله لكي أتساءل : ما الذي حدث ؟ ولكي أجد نفسي مدفوعا بقوة عارمة الى تسوية الحساب ، لا مع هيكل بالذات ، بل مع كل القيم وأساليب الفكر والحكم التي كان يجسدها ويبررها •••

كان يكفى أن أتأمل هذا كله لكي أغضب ، ولكن غضبي لم يكن وليد خريف عاصف ، بل كان عمره أطول بكثير •••



المحتـــوى



صدر عن دار القاهرة للنشر والتوزيع :

اللجنة	رواية : صنع الله ابراهيم
ليلة العشق والدم	رواية : ابراهيم عبد المجيد
قدر الغرف المقبضة	رواية : عبد الحكيم قاسم
المقهى الزجاجى والأيام الصعبة	روايتان : محمد البساطى
مالك الحزين	رواية : ابراهيم أصلان
الحرب فى بر مصر	رواية : يوسف القعيد
القصة القصيرة فى السبعينيات	مختارات ودراسة : ادوار الخراط
دراسات نفسية فى الفن	د. مصطفى سويف
صباح الخير يا وطن (شهادة من بيروت المحاصرة)	رءوف مسعد
تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية	د. جلال أمين
هوامش المقريزى (حكايات من مصر)	صلاح عيسى
دراسات فى الفن والفلسفة والفكر القومى	نخبة من أساتذة الأدب والفلسفة
كم عمر الغضب ؟ هيكل وأزمة العقل العربى	د. فؤاد زكريا

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٥٧٠٩

الناشر : دار القاهرة للنشر والتوزيع ، ص٠ب ٢٣ الجيزة
تم الطبع بمطبعة أطلس : ١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية ـ القاهرة



١٥٠ قرشا